تراث العرب

ديوان الحطيئة

بشرح

ابن السكيت والسكري والسجستاني

تحقيق

نعمان أمين طه
ماجستير فى الأدب العربى ـ جامعة القاهرة

شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر

ديوان الحطيئة

الطبعة الأولى

١٣٧٨ هـ — ١٩٥٨ م

الإهداء

إلى روح جدى « طه جبر » ذلك الذى

أسبغ على من نوره ما جعلنى أستضىء

به فى غابرى ، وفيما أستقبله من أيام .

نعمات

مقدمة

« فأمَّا الزَّبَدُ فيَذْهَبُ جُفَاءً
وَأمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ
فيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ »

صدق الله العظيم

إن تراثنا العربى الذى ورثناه عن أجدادنا ، ما زال أكثره مخطوطا ، حبيسا فى دور الكتب المختلفة فى البلاد العربية والأوربية والتركية . وحينما اطلعت على فهرس مخطوطات الجامعة العربية « بمعهد إحياء المخطوطات العربية » هالنى ما تمتلىء به دور الكتب فى تركيا من مخطوطات نفيسة قيِّمة مازالت طى الكتمان ، وما زالت فى حاجة إلى نفوس واعية غيورة ، وأيد أمينة متحفزة لكى تخرجها إلى عالم النور والمعرفة .

وقد أخبرنى أحد الأساتذة الذين زاروا تلك المكتبات ، أن بتركيا من المكتبات والكتب ما يزيد أضعافا مضاعفة على ما تحتويه دار الكتب المصرية من كنوز ، فحفزنى كل ذلك إلى الإسهام فى إخراج التراث العربى إلى النور ، وبدأت بتحقيق بعض دواوين الشعر العربى ما نشر منه وما لم ينشر ، فى سلسلة تحمل هذا العنوان .

دواوين العرب

وقد استطعت الحصول على أربع مخطوطات لديوان جرير من مكتبات؛ و [illegible] هذا غير ما هو موجود فى مصر ـ وسأبدأ فى طبعه ـ بعد أن انتهيت من ديوان الحطيئة ـ إن شاء الله .

وأسأل الله الهداية والتوفيق فيما اعتزمت عليه ، إنه نعم المولى ونعم النصير .

ديوان الحطيئة وطبعاته السابقة :

يقول جولد تسيهر I. Goldyiher في دائرة المعارف الإسلامية :

« نشط اللغويون في القرنين الثاني والثالث الهجرى إلى جمع أشعاره ، وكان قد أفسدها الحشو والوضع منذ أمد طويل ، وخاصة على يد حماد الراوية ، ويستدل على هذا بقصته مع بلال بن أبي بردة ، حينما ادعى أن الحطيئة قد مدح جده أبا موسى الأشعرى بالقصيدة الرائية (رقم ٥٠ ص ٢٢٥) وقد خلط شعره بشعر غيره ، ومما يدل على ذلك أن هناك قصيدة دالية لسويد بن كراع في « بغيض » ممدوح الحطيئة تنسب إلى الحطيئة لكثرة مدحه بغيضا (غ ١١ / ١٢٣) وهناك عدة مقطوعات تنسب للحطيئة ، وخصوصا في الهجاء والحكمة ، لا توجد في دواوينه المخطوطة التي بين أيدينا ، كذلك فأعتقد أن له كثيرا من الشعر قد ضاع ، كما ضاع شعر غيره من الفحول ، لأني لا أرى من شعر الهجاء إلا مقطوعات قليلة بالنسبة لما اشتهر عنه من كثرة الهجاء » .

وقد وصلنا شعر الحطيئة من ثلاثة طرق :

الأول : طريق أبي سعيد السكرى وبين أيدينا أربع نسخ مخطوطة من ديوان الحطيئة إحداها بليدن صنعة أبي سعيد هذا ، واثنتان بدار الكتب المصرية تحت رقم ٥٥٤ أدب ، ٥٨٥ أدب ، ورابعة بمكتبة الفاتح بتركيا تحت رقم ٣٨٢١ . أما مخطوطة ليدن فلم أرها إلا فيما نقل جولد تسيهر عنها في طبعته للديوان ، ووجدت أن ما بها من روايات لا يعدو أن يكون إشارة إلى ما بالنسخة من تصحيف وتحريف ، ومثلها في التحريف نسخة دار الكتب رقم ٥٨٥ أدب . أما النسخة الأولى ٥٥٤ أدب فهي أكثر دقة وأقدم عمرا ، وقد رمزت لها في طبعتي بالرمز (م) . أما نسخة مكتبة الفاتح فهي في ٨٧ ورقة وأدق من المخطوطات السابقة من ناحية وضوح الخط وجماله ومن ناحية ضبط الكلمات ، وكذلك من ناحية قدمها إذ قد كتبت في القرن السابع الهجرى ، وعلى الورقة الثانية منها هذه العبارة بالهامش « وقفه

السلطان ابن السلطان الغازى محمد خان . . حرره الفقير درويش مصطفى . » وفوق هذه العبارة خاتم كتب فيه : « الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله . » وفى أسفل العبارة خاتم كاتبه . وقد ألحقت بهذه الطبعة صورة الورقة الثانية منها ، وفى أولها — كما هو موجود فى مخطوطتي دار الكتب — الحمد لله رب العالمين وصلواته على سيدنا محمد نبيه وعترته المنتخبين . قال أبو سعيد الحسن بن الحسين السكرى[1] : أخبرنا محمد بن حبيب ، عن ابن الأعرابى[2] وأبى عمرو[3] قال : قال الحطيئة : »

وهذه المخطوطات الأربع تتفق بعضها مع بعض فى عدد القصائد والمقطوعات الموجودة بها وفى ترتيب هذه القصائد .

أما الطريق الثانى : فهو طريق أبى حاتم السجستانى ، وقد وردت بعض قصائد الحطيئة التى جمعها أبو حاتم فى مختارات ابن الشجرى — فى القسم الثالث منها — وهى أقل عددا مما رواه السكرى : قال جولد تسيهر : وكان أبو حاتم أدق من الشيبانى وابن الأعرابى ،

---

(١) انظر ترجمته فى نهاية المقدمة .

(٢) هو أبو عبد الله محمد بن زياد المعروف بابن الأعرابى : من أئمة الكوفيين فى اللغة، كان عالما ثقة ، أخذ عن المفضل الضبي والكسائى . وأخذ عنه جماعة أشهرهم أبو العباس ثعلب . وكان ابن الأعرابى أحفظ الناس لغات العرب وأيامهم وأنسابهم . له تصانيف كثيرة أشهرها . كتاب النوادر . ولد فى سنة ١٥٠ هـ وتوفى سنة ٢٣٠ هـ وقيل ٢٣١ أو ٢٣٢ أو سنة ٢٣٣ .

(٣) قال فى الوفيات ١/ ٦٥ أبو عمرو إسحاق بن مرار الشيبانى النحوى، اللغوى هو ابن رمادة الكوفى، ونزل بغداد ، وهو من الموالي ، وجاور شيبان للتأديب فيها ، فنسب إليها . وكان من الأئمة الأعلام فى فنونه وهى اللغة والشعر، وكان كثير الحديث كثير السماع ثقة، وهو عند الخاصة من أهل العلم والرواية مشهور ، والذى قصر به عند العامة من أهل العلم أنه كان مشتهرا (أو مستهترا) بشرب النبيذ . وأخذ عنه جماعة كبار منهم أحمد ابن حنبل ويعقوب بن السكيت . وقال فى حقه : عاش مائة وثمانى عشرة سنة ، وكان يكتب بيده إلى أن مات وكان ربما استعار الكتاب منى وأنا إذ ذاك صبى آخذ عنه وأكتب من كتبه . ومات فى اليوم الذى مات فيه أبو العتاهية وإبراهيم النديم الموصلى سنة ٢١٣ ببغداد . وقيل بل سنة ٢٠٦ وعمر مائة وعشر سنين وهو الأصح .

وقال فى معجم الأدباء لياقوت ٦/ ٧٨ مات فى أيام المأمون سنة ٢٠٥ أو سنة ٢٠٦ وكان يقول : تعلموا العلم فإنه يوطئ الفقراء بسط الملوك . وكان الغالب عليه النوادر وحفظ الغريب وأراجيز العرب، وجمع أشعار نيف وثمانين قبيلة ، وكان كلما عمل منها قبيلة وأخرجها للناس كتب مصحفا وجعله بمسجد الكوفة (انظر فهرس الرواة من هذه الطبعة ص ٤١٥ أمام اسم أبى عمرو الشيبانى أو أبى عمرو) .

لحرص فيها على رفض الأشعار المشكوك فى نسبتها إليه[1] :

أما الطريق الثالث الذى لم يتنبه إليه جولد تسيهر فى طبعته أو تعليقه فى دائرة المعارف. فهو طريق أبى يوسف يعقوب بن السكيت .

وأغلب الظن أن مخطوطته التى رويت عنه قد ضاعت ، ولكنها ضُمِّنت ما جاء فى مخطوطة مكتبة عاطف أفندى التى كتبت فى القرن السادس الهجرى ـ كما حاول أن يحدد تاريخها جامعو فهرس معهد إحياء المخطوطات بالجامعة العربية ـ وهى فى ٤٦ ورقة ، ومثبتة فى فهرس مكتبة عاطف أفندى تحت رقم ٢٧٧٧ ، وفى فهرس الجامعة العربية السالف الذكر تحت رقم ٥٠٦ وقد أشرنا إليها فى طبعتنا بالرمز (ع) وتعتبر وحيدة لا نظير لها فى مكتبات العالم ، ولم يتنبه إليها أو يعرفها أحد قبلى على ما أعلم .

طبعات ديوان الحطيئة السابقة :

١ ـ طبع الديوان لأول مرة فى القسطنطينية سنة ١٣٠٨ هـ (١٨٩٠م) فى جزءين ـ كما يقول الأستاذ إفرام البستانى صاحب الروائع الذى اطلع على أولهما فقط[2] . وحاولت جاهدا العثور على هذه الطبعة لمجرد الاطلاع عليها دون جدوى : إذ لجأت إلى دار الكتب المصرية ومكتبة الأزهر ثم مكتبة دار العلوم آملا فى أن يكون أحدهم قد عنى بإيداع نسخة من هذه الطبعة فى مكتبتهم العامرة ، وإذا بى أخرج منها وأنا أردد هذا المثل : تسمع بالمعيدى خير من أن تراه . وعجبت أشد العجب كيف فات القائمين على أمر اللغة العربية وسدنة لغة الضاد ـ وهم أبرع الناطقين بها و بالصاد والطاء والظاء ـ كيف فاتهم الاحتفاظ بنسخة واحدة مع أن مدرستهم قد أنشئت قريبا من العهد الذى نشر فيه الكتاب وطبع ، وقلت فى نفسى أخيرا ـ تعليلا لهذه الظاهرة : لعلهم لم يعنوا بدراسة الأدب الجاهلى فى هذه الفترة ، أو كانوا يأبون قراءة الكتب العربية التى يطبعها الأعاجم ومن بينهم هؤلاء الأتراك ! أو أن وطنيتهم وعروبتهم قد أبت عليهم ـ أن يسمحوا لمطبوعات الأتراك العربية

(١) انظر الصفحات ٢٦ ، ١٠٨ ، ١٧٠ من هذه الطبعة .

(٢) وقال الأستاذ البستانى عنه : عليه إيضاحات مختصرة مأخوذة من شرح السكرى .

أن تتسرب إلى دار العلوم فتلوثها لقول حافظ إبراهيم قصيدته فى هذه الآونة ومنها :

سرت لوثة الإفرنج فيها كما سرى لعاب الأفاعى فى مسيل فرات

أو أنهم ابتعدوا عن قراءة شعر الحطيئة لأنه كان من المرتدين الذين حاربهم أبو بكر الصديق . . أو لأنه ولد زنا كما يروى التاريخ . أو لأن أبا العلاء المعرى قد وضعه فى رسالته فى موضع مهين « ... بيت فى أقصى الجنة كأنه حفش أمة راعية ، وفيه رجل ليس عليه نور سكان الجنة وعنده شجرة قميئة ثمرها ليس بزاك .. » أو أنهم قد شغلوا عنه بتلك الوظيفة الرائعة التى ما زال الواحد منهم يدعو الله تضرعا وخفية صباح مساء حتى ينالها ، فتأخذ عليه لبه وعقله وجسمه ، وتغرقه إلى أذنيه فى حساب الأخطاء الإملائية والهمزات والنقط وعلامات الترقيم وغير ذلك مما يفوق فى أهميته أبحاث العلماء فى التربية وعلم النفس وفى الطاقة الذرية وزيادة سرعة الطائرة ومحاولة الوصول إلى القمر ...

الحق أقول – إننى رغم تفكيرى الطويل – لم أهتد – إلى الآن – إلى تعليل مثل تلك الظاهرة أو غيرها مما يتصل بهم ، ولعل أحد مبعوثى اليونسكو فى هيئة الأمم المتحدة يستطيع فى يوم من الأيام أن يهتدى إلى كثير مما عجزت عن الاهتداء إليه من أمر هؤلاء القوم الذين يمتزج علمهم الجم وتواضعهم الشديد بكبرياء تشبه هذا المخلوق الذى أبى أن يسجد لآدم !

وقد زال عجبى منهم حينما زرت مكتبتهم فوجدتها خالية من كثير من المراجع الهامة القديمة ، فعرفت حينئذ السبب فى إطلاق هذا الاسم اللطيف «دار العلوم» على معهدهم !

لقد قطع الدراعمة – بالدال أو الضاد – حبل تفكيرى والاستمرار فى سرد طبعات ديوان الحطيئة ، فلنعد إليها ، راجين ألا تفجأنا صورة الدراعمة فتقطع علينا الحديث مرة أخرى :

٢ – أما الطبعة الثانية فقد عنى بها المستشرق جولد تسيهر ، وقد رجع إلى مخطوطتى دار الكتب المصرية وإلى مختارات ابن الشجرى ، ولم يحاول أن يرجع إلى مخطوطة مكتبة الفاتح أو عاطف أفندى ، برغم أنه علم بوجود هاتين المخطوطتين : إما ظنا منه أنهما نسختان

مطابقتان لما بيده ، فلا داعى للرجوع إليهما وإما لصعوبة الوسائل التى يستطيع بها الحصول على هاتين المخطوطتين ، وقد نشر النص ، بعد التقديم له بمقدمة ضافية تبلغ الستين صفحة باللغة الألمانية ـ ثم علق على النص ، وكان يذكر تعليقه بعد كل قصيدة فيشير إلى روايات البيت المختلفة ثم يعنى بذكر أبيات أخرى للحطيئة أو لشعراء آخرين فى معنى البيت أو شبيهة بمبناه . وفى نهاية طبعته ذكر بعض القصائد التى لم تذكر فى المخطوطة ومنها قصيدة الحطيئة المشهورة التى مطلعها « وطاوى ثلاث . . » وقد أفدت من تعليقات جولد تسيهر : فحاولت أن أذكر أغلبها فى هذه الطبعة ليستفيد منها القارئ ، ولم أحذف منها إلا ما وجدته بعيدا عن الصواب فى فهمه كلمة من الكلمات كما حدث فى فهمه لكلمة « السر »[1] وعلى كل ، فإن الأبيات التى استشهد بها جولد تسيهر لم أحذف منها إلا القليل !

٣ ـ أما الطبعة الثالثة: فقدطبعها أحدالسادة الناشرين من أصحاب المكتبات المتخصصة فى طبع الكتب ذات الورق الأصفر سنة ١٩٠٥ (سنة ١٣٢٣ هـ) وقد أخرجها هذا الناشر أسوأ إخراج ، وقد حاز قصب السبق فى كثرة الأخطاء والتحريف الذى تعج به كل صفحة من صفحات الكتاب .

والغريب أنه أضاف إليه اسم عالم من العلماء هو أحمد بن الأمين الشنقيطى ، وأغلب الظن أن هذا العالم لم يعن بتصحيح هذه الطبعة .

٤ ـ الطبعة الرابعة : وقد ظهرت حديثا فى لبنان معتمدة على الطبعتين السابقتين . وقد أضاف إليها الشارح شرحا خفيفا لبعض الكلمات ، وكل الذى أتى به من تجديد أنه أخرج الديوان فى صورة جديدة من ناحية تنظيم القصائد أو رسم الأبيات بما يشبه إخراج دواوين الشعراء الشبان المحدثين .

---

(١) فقد فهمها جولد تسيهر بمعنى « حفظ السر » والحق أن معناها النكاح سواء أكان مجرد الغشيان أو الزنا كما ذكرت فى هذه الطبعة ص ٦٣ ، فلما ظن جولد تسيهر المعنى الذى ظنه ، حاول ـ على طريقته إيراد تعليقه فى ذلك وهو « والمحافظة عليه مما يمدح به الرجل ويفخر به وهو معنى شائع فى أدب العرب القديم ... الخ»

﴿ أما هذه الطبعة الحديثة من الديوان ﴾

فقد اعتمدت فيها :

أولا : على طبعة جولد تسيهر التى رجع فيها إلى مخطوطتى القاهرة برواية السكرى ، وما ذكر للحطيئة من قصائد فى مختارات ابن الشجرى ، وقد رمزت للمخطوطتين الأوليين المتفقتين فى عدد القصائد وترتيبها اتفاقا تاما بالرمز (ه) وللمختارات ابن الشجرى بالرمز (م)

ثانيا : على مخطوطة مكتبة عاطف أفندى ، ورمزت لها بالرمز (ع) وعليها كان مُعَوَّلى أولا ثم على بقية المخطوطات .

وصف مخطوطة ع

هى ضمن مخطوطة صورتها الجامعة العربيه من مكتبة عاطف أفندى ، ويوجد قبلها و بعدها ـ فى هذه المجموعة التى تحتوى عليها المخطوطة ـ كتاب أو أكثر . أما الجزء المحتوى على شعر الحطيئة منها فيقع فى ٤٦ ورقة ، كل ورقة تشتمل على صفحتين متقابلتين ، ماعدا الورقة الأولى والأخيرة فقد كان فى الصفحة اليسرى من الورقة الأولى مقدمة عن الحطيئة تملأ النصف الأعلى من هذه الصفحة ـ أما الصفحة اليمنى من هذه الورقة فكانت نهاية كتاب آخر من الكتب التى تشتمل عليها المخطوطة . وفى أعلى المقدمة السابقة عنوان بخط النسخ :

شعر الحطيئة

ثم تبدأ المقدمة هكذا :

« قال: كان الحطيئة رجلا مملاقا ، ولم يكن يقتنى المال، ولا يحسن إمساكه . . الخ فى ١١ سطرا متوسط كلمات كل سطر ٢٠ كلمة . ثم لا يبدأ الكاتب ـ بعد هذه المقدمة ـ فى الجزء الباقى من الصفحة فى إيراد القصيدة الأولى من شعر الحطيئة ، بل يترك فراغا . ثم يبدأ من

الورقة التالية فى ذكر القصيدة الأولى ، بعد ذكر البسملة ثم نسب الحطيئة (وقد عرضت على القارئ صورة زنكوغرافية لهذه الورقة) . وأنا أشك فى أن المقدمة الأولى التى كتبت على الورقة الأولى لهذا العالم الذى جمع هذا الديوان ، بل أغلب الظن أن الورقة الأولى من المخطوطة القديمة فقدت، فنقل الكاتب المتأخر هذه المقدمة من المخطوطة المعروفة المتداولة برواية السكرى ، والدليل على ذلك شيئان :

أولهما أنه ترك النصف الأسفل من الصفحة خاليا من الكتابة ، ولم يذكر فيه سندا للرواة أو تاريخ الكتابة أو النسخ كمخطوطة السكرى المشهورة المعروفة ، مع أنها نسخة قيمة من الناحية العلمية (كما سأبين بعد) .

ثانيا : اختلاف الخط فى هذه الورقة عن الخط الذى كتبت به الأوراق التالية فى المخطوطة .

أما من ناحية نسبة هذه المخطوطة إلى أحد العلماء الذين جمعوا شعر الحطيئة ، فسنحاول نسبتها إلى أحد هؤلاء العلماء ، بعد إيراد هذه الملاحظات .

أولا : نلاحظ أن المؤلف أو الكاتب فى القسم الأول من المخطوطة (وهو الذى يبدأ من الورقة الثانية حتى الورقة التاسعة والثلاثين) : يذكر البيت ثم يشرح الألفاظ مع الاستشهاد على ما يقول بآية قرآنية أو بيت من الشعر ينسبه كثيرا إلى قائله وفى بعض الأحيان يترك نسبته إلى قائله . وهو أحيانا يذكر البيت الذى يستشهد به كاملا ، وفى أحيان أخرى يكتفى بذكر جملة من البيت هى موضع الاستشهاد . ونلاحظ أنه فى بعض الأبيات يحاول أن يذكر آراء أخرى لعلماء آخرين (لا يذكر أسماءهم غالبا) حول بيت من الأبيات بعد ذكر كلمة : غيره .

وقد يكرر هذه اللفظة بعد البيت الواحد مرتين أو ثلاثا[١] . وقد يذكر شرحا آخر للفظة واحدة أو للبيت أو رواية أخرى فى هامش الورقة ، وهذا قليل[٢] . ونلاحظ على هذا

(١) انظر البيت ٢٤ من ص ١٥ .

(٢) انظر للتعليق على البيت ٢ ، ٣ من ص ٣٣ .

الجزء من المخطوطة استفاضة فى الشرح تربو كثيرا على نظيرها مما جاء فى القسم التالى من المخطوطة أو مما جاء فى نظيره مرويا عن السكرى ، وهو يهتم فى هذا القسم بالرواية وتعددها والشرح اللغوى اهتماما كبيرا والاستطراد أحيانا فى ذكر مترادفات قد تصل أحيانا إلى عدة أسطر[١] . أما من ناحية الخط : فيكتب البيت بخط أكبر بمقدار الضعف من خط الشرح (انظر الصور الزنكوغرافية) وهو يعنى بالشكل عناية كبيرة مما يزيد من قيمة هذه المخطوطة ، ويبلغ من حرص الكاتب على الدقة أنه إذا ظن عدم وضوح لفظة وضوحا كافيا فإنه ينص على كتابتها بخط أوضح فى الهامش . ومن ناحية العلامات الظاهرة ، فإن كل ورقة من المخطوطة لا تخلو من علامة هى بصمة كاتب هذه المخطوطة غالبا أو قارئ لها فيما بعد ، وتوجد هذه البصمة دائما فى الجزء الأيسر من الورقة وفى الزاوية اليمنى السفلى من الورقة أيضا .

أما الخط : فهو واضح فى جملته إلى حدما ، ويعيبه أحيانا سقوط بقعة من المداد أو فشاء المداد بحيث يجعل من المتعذر أو من المستحيل قراءة لفظة أو لفظتين ، وبذلك يصعب فهم جملة برمتها ، والمواضع التى توجد بها هذه البقع قد أشرت إلى أغلبها فى الهامش ، أو اكتفيت – فى القليل – بوضع نقط تدل على ذلك ، وقد اهتديت فى بعض المواضع – بعد طول عناء وتدقيق – إلى قراءتها[٢] .

أما من ناحية الشرح فهو مسهب جدا فى بعض القصائد (مثل القصائد رقم ٣٦ ، ٤١ ،

---

(١) انظر الصفحات ١٣٠ ، ١٣٤ ، ٢١٧ ثم الفهرس الخاص بالفوائد رقم ١٧ من الفهارس .

(٢) أما البقع فكانت فى الأوراق والمواضع الآتية : فى : ورقة ٦ ، ٧ (أعلى الصفحة اليمنى .) فى الورقة ١٧ (وبها ٥ بقع فى الصفحة اليمنى وفى الورقة ١٩ (بقعتان) وفى الورقة ٢٠ (بقعة واحدة فى الصفحة اليمنى) وفى الورقة ٢١ (بقعتان فى أسفل الصفحة اليمنى وواحدة فى أعلى الصفحة اليسرى) وفى الورقة ٢٧ (بقعة فى أعلى الصفحة اليمنى) . وفى الورقة ٣١ (بقعة كبيرة فى وسط الصفحة اليمنى) . وفى الورقة ٣٣ (ثلاث بقع مخروطية الشكل على اليمين من الصفحة اليمنى وأخريان صغيرتان نوعا على اليسار من الصفحة نفسها وفى الورقتين ٣٥ ، ٣٦ (ثلاث بقع مخروطية على اليمين من الصفحة اليمنى ثم أربع فى الهامش من الصفحة نفسها ليست بذات أثر سيء) وفى الورقة ٣٧ (بقعة مخروطية أواسط الصفحة اليمنى اخترقت أربعة أسطر) وهناك عيوب أخرى لضياع الحبر (الشلفطة الطولية التى تمتد حتى تشمل عدة أسطر كما فى الصفحة اليمنى من الورقة ٣٨) .

١ ، ٧١ ، ٣٩ ، ٧٧ ، ٥٠ ، ٥٧ ، ٢٥ ، ٧ ، ٢٢ ، ١٠١ وهو متوسط فى بعضها الآخر (كما جاء فى القصائد رقم ٤٠، ٣٨ ، ٨٩ وعلى الجملة فإن الشرح فى قصائد المدح أسهب منه فى الهجاء ، وفى أول المخطوطة أسهب منه فى أواخرها .

أما من ناحية نسبة هذا الجزء أو القسم من المخطوطة إلى ابن السكيت فيشير إليه ذلك العنوان الذى بدئ به القسم التالى له مباشرة :

« عن غير يعقوب» وخاتمة هذا القسم الثانى أيضا بهذه العبارة : « آخر ما وجد من غير رواية يعقوب » (انظر الصورتين الفوتوغرافيتين لورقتى ٣٩ ، ٤٦) و بذلك يثبت أن هذا القسم لابن السكيت برغم وجود هاتين العبارتين اللتين أثارتا الشك فى نفسى وهما :

« وروى يعقوب » فى السطر الخامس من ص ١١٨

« ومثله أنشد يعقوب » فى ص ٢٦٨

وأغلب الظن أن كلمة «غير» قد سقطت من العبارتين قبل الاسم «يعقوب» فتكون صحة العبارتين السالفتين : «وروى غير يعقوب» «ومثله أنشد غير يعقوب» ، و بذلك يستقيم الرأى الذى يقول إن هذا الجزء من المخطوطة كلها ليعقوب مؤيدا بهذه العبارات : « وروى غير يعقوب » . ص ١٣٢ ، « لم يروها يعقوب : ص ١٤١ » ، « إلى هاهنا عن غير يعقوب : ص ٢٤٩ » ، « عن غير يعقوب ص ٢٦٠ ، ٢٧٩ » ، « و بعدها أر بعة أبيات ليست فى كتاب يعقوب ص ١٥٦» ، «وهاهنا بيت لم يروه يعقوب ، وهو فى رواية خالد ص ١٥٨»، « آخر ما روى يعقوب: وهذه زيادات من شعر الحطيئة غير الرواية ص ٣١٢ » ، « رجع إلى كتاب يعقوب ص ١٥٧ » .

و إذا أضفنا إلى ما تقدم أن ابن النديم قد ذكر فى الفهرست أن ابن السكيت قد صنع — فيما صنع من دواوين — ديوان الحطيئة[1] وأنه قد اشتهر بميله إلى التأليف اللغوى حتى ألف

---

(١) الفهرست ص ١٥٧ .

كتابى إصلاح المنطق، وتهذيب الألفاظ، وقد قال فيه أبو العباس المبرد : ما عبر على جسر بغداد كتاب فى اللغة مثل إصلاح المنطق، ولم أر للبغداديين كتابا خيرا منه . وقال البعض : إن ابن السكيت كان باللغة أعلم منه بالنحو، وإذا عرفنا غلبة الشرح اللغوى المستفيض على شرح أبيات المخطوطة من جهة، واستطراده إلى إيراد مترادفات وفوائد لغوية كثيرة قد تبلغ عدة أسطر من جهة أخرى[1] اطمأننا إلى أن هذا القسم الأول من المخطوطة لابن السكيت، والقسم الثانى لمن نقل المخطوطة عن مخطوطة أخرى كانت تحمل اسم شارح آخر غير ابن السكيت. وأنا أعتقد أن المخطوطة كلها باحتوائها على عدة كتب - من بينها شرح ديوان الحطيئة - كانت عدة مختارات مفيدة أراد جامعها[2] الاستفادة منها وقت الفراغ، وضمها فى مجلد واحد .

القسم الثانى من المخطوطة :

وهو ما أضافه الكاتب إلى شرح ابن السكيت فى القسم الأول ليكون لديه أو فى نسخة لديوان الحطيئة وعليها أو فى شرح له بمقارنته بشرح السكرى :

ونلاحظ على هذا القسم أنه ردىء الخط غير واضح، دقيق الكلمات بحيث أنه كتب فى سبع ورقات ما كان يجدر به أن يكتبه فى مثليها . ويغلب على شرح هذا القسم الإيجاز التام فى الشرح اللغوى، والاختصار فى إيراد الروايات المختلفة، ولذلك فهذا الجزء أقل قيمة من الناحية اللغوية من جهة، ويؤيد نسبة القسم الأول إلى ابن السكيت من جهة أخرى .

إذن أستطيع أن أقول مطمئنا إن مخطوطة مكتبة عاطف أفندى هى ديوان الحطيئة بشرح ابن السكيت[3]، ولا يعيبها إلا عدم النص على هذا صراحة فى صدر المخطوطة

---

(١) كما جاء فى إيراده ألفاظ النباتات الصحراوية وغيرها (انظر فهرس الفوائد رقم ١٧) .

(٢) وقد وجدت بالمخطوطة عبارة أضيفت إلى الشرح ونص فيها على من أضافها وهو الشهاب محمود الخفاجى (انظر ص ١٤٦) . (٣) وإذا رجعنا إلى فهرس الرواة وجدنا أنهم من أساتذة ابن السكيت الذين روى عنهم، وهذا مايؤيد نسبة الشرح الموجود فى المخطوطة إليه .

وفى نهايتها ، كما اعتادت المخطوطات الأخرى أن تفعله ، كذلك لم يذكر عليها تاريخ كتابتها أو اسم مالكها.

تبويب القصائد وتنظيمها فى هذه الطبعة :

أما طريقة تنظيمى لهذه الطبعة ، فقد حاولت :

أولا : التقديم للقصيدة بمقدمة أذكر فيها تاريخ الممدوح .

ثانيا أن أذكر النص ثم أذكر شرحه ، بعد قسمه قسمين أو ثلاثا : أذكر المقدمة الغزلية أولا ، ثم أبيات الرحلة ، ووصف الناقة ـ إن وجدت ـ ثانيا ، ثم أبيات المدح أو الهجاء ثالثا .

ثالثا : رتبت قصائد الديوان حسب الموضوعات : بدأت أولا بباب المديح ثم بباء الهجاء، ثم ثلثت بباب ذكرت فيه المقطوعات الغزلية أو التى كانت مقدمات لقصائد وموضوعها الرحلة ووصف الناقة ، أو ما وجد للحطيئة من قصائد قليلة فى الفخر والحكمة وغيرها . وفى النهاية ذكرت القصائد والمقطوعات التى لم تذكر فى المخطوطات وأوردتها كتب الأدب .

رابعا : حاولت فى باب المدح أن أرتب القصائد ـ ما أمكن ـ حسب ترتيبها التاريخى: فجمعت القصائد التى ظننت أنها قيلت فى الجاهلية ، ثم أعقبتها بما قيل فى الإسلام ،ويدل عليه قرائن قوية .

وحاولت ضم مدائح كل ممدوح فى مكان واحد ، ثم رتبت الممدوحين حسب قربهم أو بعدهم من قبيلة الحطيئة : فذكرت أولا من يمتون إلى عبس وهم بشر الكلابى وعيينة وخارجة الفزاريان ثم شبث وعروة العبسيان ، ثم من يمتّون إلى قيس عيلان : عبد الله بن جدعان القرشى ثم من تميم بنى عاصم بن عبيد و بنى كليب و بنى مقلد و بنى نهشل ، ووقاصا التميمى . ثم انتقلت إلى ربيعة ومنها بكر فذكرت مدائحه فى طريف الحنفى ثم بنى عوف بن عمرو وأهل القرية ، ثم ذكرت من ينتمون إلى اليمن : زيد الخيل وأوسا الطائى و يزيد الحارثى . و بدأت بعدها فى المدائح التى أظن أنها إسلامية : فبدأت ببغيض الذى قال فيه الحطيئة

أكثر مدائحه وأهمها وأقواها ، ثم ذكرت مدائحه فى عمر بن الخطاب وأبى موسى الأشعرى ثم الوليد بن عقبة ثم سعيد بن العاص وأخيرا ذكرت مَنْ لم أعرف لهم ذكرا فى كتب التاريخ أو موضعهم بالضبط : وهم الأعور وأبو عقيل عمرو الثقفى وعلقمة بن هوذة.

وكذلك فعلت فى مقطوعاته الهجائية : فذكرت ماهجا به من يمتون إليه بأقوى الصلات: عائلته : أمه ، إخوته ، زوجته ... ثم المقطوعات التى هجابها قبيلته (بنى عبس) ومن ينتمون إليها ثم من يبتعدون عنها ولا يمتون إليها بصلة القرابة .

خامسا : قسمت القصيدة إلى مقدمة غزلية ثم وصف الناقة ـ إن وجد ـ ثم الغرض الرئيسى : المدح أو الهجاء . وذكرت أبيات كل قسم برمتها ثم شرحتها بيتا بيتا حتى إذا ما انتهيت منه انتقلت إلى ذكر القسم الثانى ثم شرحه كالقسم الأول ، وهكذا ، وقد سلكت هذه الطريقة لكى أقدم للقارئ النص برمته ، فيستطيع أن يقرأ الشعر كاملا خلوا مما كان يفصل البيت عن أخيه من شرح قد يمتد إلى عدة سطور أو صفحات و بذلك يقطع جمال الشعر ، ويتعب القارئ الذى يريد أن يقرأ قصيدة فيضطر ـ تبعا للنظام القديم ـ إلى استيعاب القصيدة فى عدة صفحات متتالية ، وقد يقطع تصفحها كلها مزاجه الفنى ، فهذه الطريقة التى ذكرتها أكثر إراحة للنفس من الناحية السيكولوجية ومن الناحية الفنية .

سادسا : قبل شرح البيت أذكر رواياته المختلفة ، ثم أذكر الشروح مبتدئا بما جاء فى مخطوطة ع فأضع الرمز (ع) أولا ثم أذكر الشرح بين معقوفين ثم أثنى بما جاء فى هامش (ع) ثم ما جاء فى (ع) عن غير ابن السكيت والذى ذكر فى المخطوطة بعد لفظة (غيره) ـ ثم أذكر ما جاء فى مخطوطة السكرى اعتمادا على طبعة جولد تسيهر بعد الرمز وه ـ ثم أذكر ما جاء فى مختارات ابن الشجرى عن السجستانى رامزا إليه بالرمز (م) وأخيرا أذكر ماجاء فى المراجع الأخرى وأهمها اللسان (ل) وكامل المبرد وغيرها بهذا الترتيب .

وإذا عنّ لى شرح أو تعليق أورده بعد كلمة أقول . وهناك بعض مواضع فى شرح السكرى ذكرت بعد الرمز (ع) وقد فسره جولد تسيهر بأنه اختصار لاسم أبى سعيد السكرى، فاكتفيت بذلك الرمز دون الإشارة إليه .

سابعاً : اعتمدت فى نص الأبيات على مخطوطة ع رواية وضبطا وعددا ، فما زاد عليها فى مخطوطة ه أو غيرها أوردته أثناء الشرح فى موضعه بين شَرْحَى البيتين اللذين قبله و بعده[1] وقد أشرت إلى الزيادات فى أول القصيدة فى الهامش عند ذكر المراجع التى ذكرت فيها القصيدة والأبيات التى يحتوى عليها كل مرجع من القصيدة .

هذا وقد أفدت من تعليقات جولد تسيهر ؛ وأعنى بها تلك الشواهد التى أوردها مساندة لمعنى من المعانى وكد فى إخراجها من المراجع ، فأضفتها فى هذه الطبعة بعد إضافات كثيرة إليها ، غير منكر ذلك الجهد الذى قام به ذلك المستشرق العظيم فى نشر الديوان منذ أكثر من ٦٥ عاما .

هذا، وأود أن أذكر ملاحظة أخيرة وهى أننى حينما قابلت بين أكثر الروايات المختلفة وجدت أن ابن السكيت قد ذكر فى تلك المخطوطة أشهر رواية للبيت أو أصحها. ومما يستدل على ذلك أنها تكون غالبا الرواية التى تستحسنها أغلب المراجع وتنص على صحتها أو على مَيْل العلماء إلى إثباتها . ولم يذكر فى مخطوطة (ع) شاذا أو مخالفا لأصح الروايات إلا قليل جدا يعَدّ على أصابع اليد الواحدة .

أما من ناحية الخطأ فى هذه المخطوطة ؛ فكان نصيبها منه ضئيلا جدا لا يتجاوز خمس مواضع أشرت إليها فى موضعها .

ومن يتصفح هذه الطبعة سيجدها قد انفردت بقصيدة قافية ص ٣١٤ لم أعثر عليها فى غيرها من المراجع أو المخطوطات ، كذلك فقد أسقِطَ منها معظم الأبيات التى نص العلماء على أنها موضوعة . و إن القارىء لهذه الطبعة سيجدها أصح من طبعة جولد تسيهر بكثير لضبط مخطوطة (ع) بالشكل الكامل من جهة ، ولما بذلته من جهد فى ضبط الكلمات أو تحقيقها من جهة أخرى . وأستطيع أن أعلن أن نشر ديوان الحطيئة دون الرجوع إلى

---

(١) انظر ص ١٠٧ — ١٠٩ ، ١٤١ ، ١٤٤ ، ١٤٦ ، ١٥٢ ؛ ١٥٤ ، ١٥٦ ، ١٥٩ ، ١٦٤ من هذه الطبعة .

مخطوطة (ع) يعد عملا ناقصا بعيدا عن الدقة العلمية، بحيث أن مخطوطة (ع) يمكن أن يغنى نشرها عن مخطوطة السكرى، ويطمئن الباحث فى هذه الحالة إلى أنه يقرأ الحطيئة وشعره مضبوطا من الناحية الفنية واللغوية.

وبعد، فهأنذا أقدم للقارئ نبذة قصيرة عن تاريخ حياة الحطيئة بعد تقديم ترجمة مختصرة للرواة الثلاثة: ابن السكيت والسكرى وأبى حاتم السجستانى، راجيا أن يتجاوز القارئ عما يجده من هنات أو مالم أستطع الاهتداء إلى صحته لعدة أسباب أهمها صعوبة قراءة المخطوطة (ع) وخصوصا فى الجزء الثانى منها الذى ذكر تحت عنوان « مالم يرو عن يعقوب » ويعلم الله أنى كنت أكد بصرى أحيانا فى قراءة بعض الألفاظ كدا لا يقدره إلا من حاول نشر مثل هذه المخطوطة ذات الخط الدقيق، إذ وصلت رداءته أو انطماس كثير من كلماته إلى حد أنه كان كفيلا بتزهيدى فى نشر ديوان الحطيئة.

وقد كنت فى كثير من الأحيان، حين يغمض علىّ النص أو تصعب القراءة ويستحيل الفهم أراجع أستاذى العلامة مصطفى السقا فيبذل أقصى جهده معى فى تبين الحقيقة، ويوجهنى أحسن التوجيهات التى كان لها أثر كبير فى إقامة شعر الحطيئة، وأنا أهدى إليه جزيل شكرى.

وقد عملت للديوان عدة فهارس تسهل على القارئ مراجعة مادة الأشعار والشروح والأعلام والفوائد اللغوية وغيرها مما يراه القارئ فى نهاية هذه الطبعة.

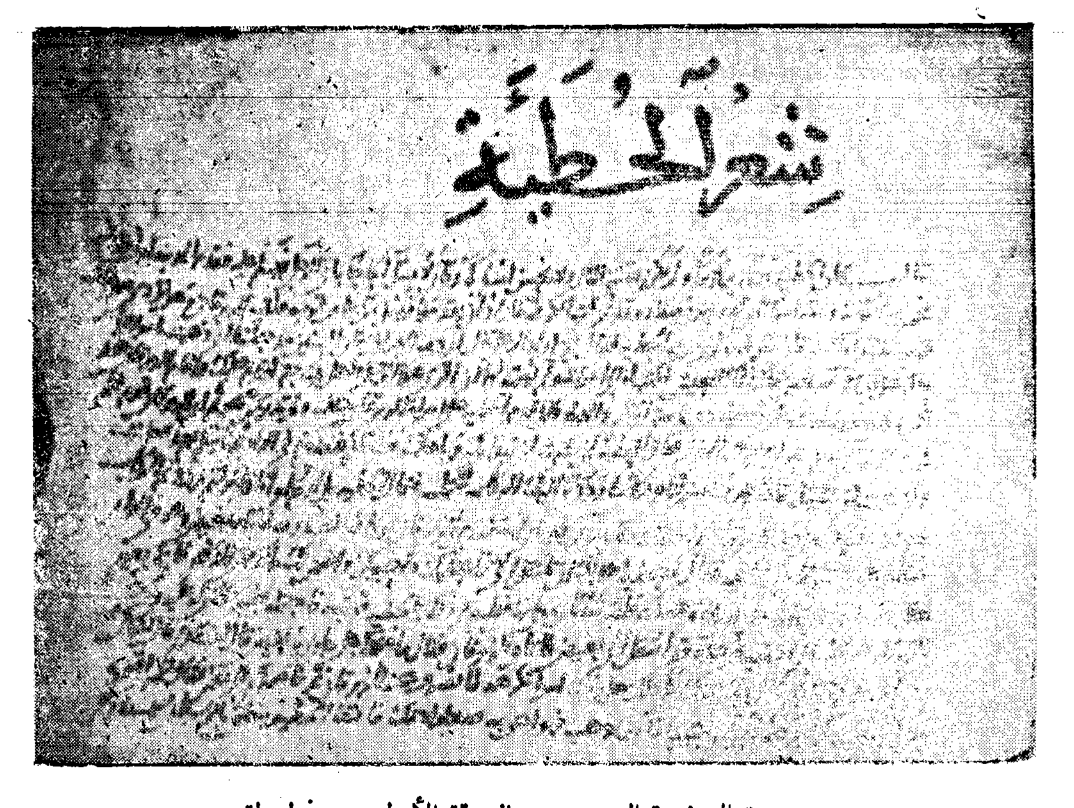
وإنى مدين بالشكر لإدارة معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية على ما أمدتنى به من مخطوطات. كما أوجه عظيم الثناء إلى شركة مصطفى البابى الحلبى التى قامت بنشر هذا الديوان على نفقتها وبذلت أعظم ما لديها من عمل فنى فى إخراجه.

والله أسأل أن يوفقنا إلى خدمة العلم وأن تكون حقيقتنا دائما أكبر من ظاهرنا ؟

نعمان أمين طه

العباسية فى يوم الثلاثاء { ٤ من صفر ١٣٧٨ هـ
١٨ من أغسطس ١٩٥٨ م




شعر الحطيئة

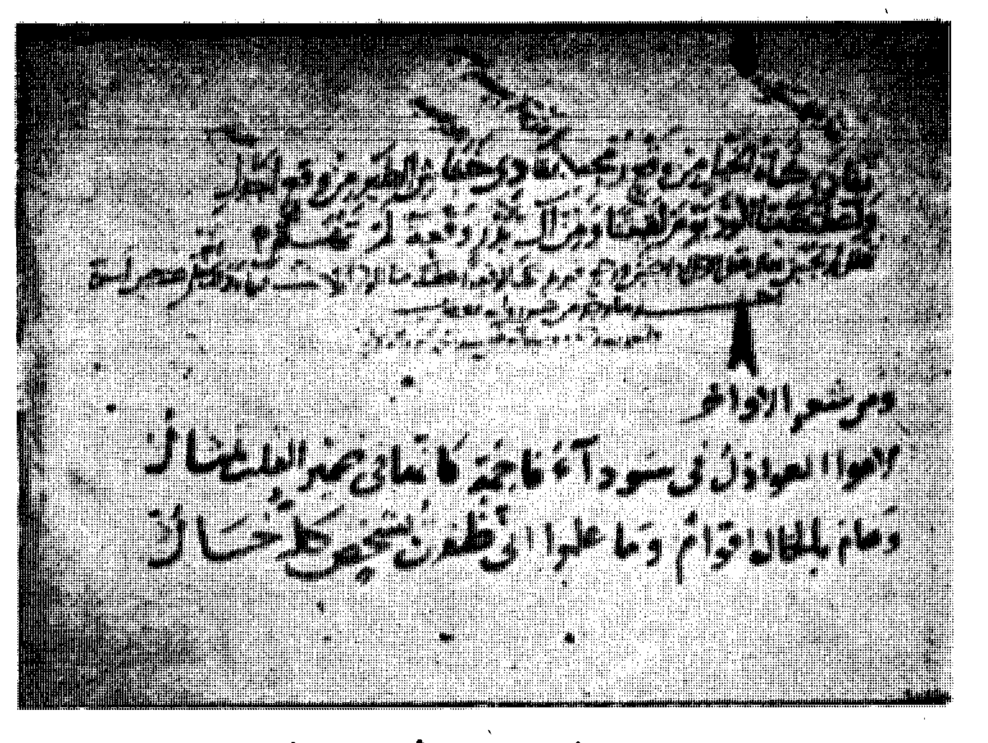
صورة الصفحة اليسرى من الورقة الأولى من مخطوطة
مكتبة عاطف التي رمز إليها بالرمز ع



صورة الورقة الثانية من مخطوطة مكتبة عاطف ع

صورة الورقة التاسعة والثلاثين من مخطوطة ع





صورة الصفحة اليمنى من الورقة الأخيرة من مخطوطة ع





صورة الورقة الأولى من مخطوطة مكتبة الفاتح



تراجم الشارحين والرواة

(١) ابن السكيت

هو أبو يوسف يعقوب بن اسحاق المعروف بابن السكيت، والسكيت: لقب أبيه إسحاق عرف به لأنه كان كثير السكوت طويل الصمت ، وكان من أهل دورق بلدة من كور الأهواز فى خوزستان ، وبها ولد ابنه ، ثم انتقل إلى بغداد . وكان إسحاق رجلا صالحا ، من أصحاب الكسائى حسن المعرفة بالعربية ، فهمّ بأن يلقن ابنه علوم الأدب ، وسعى طالبا من الله أن يوفقه إلى ذلك ، فأجيبت دعوته . فلما بلغ الولد أشده ، أخذ يختلف على الأئمة ، فروى عن الأصمعى [١] وأبى عبيدة [٢] والفراء [٣] وأبى عمرو الشيبانى [٤] . وابن الأعرابى [٥] وغيرهم ، وأخذ عنهم النحو واللغة والشعر ، فأضحى عالما مبرزا ، وراوية ثقة . روى عنه : أبو عكرمة الضبى وأبو سعيد السكرى وغيرهما . قال أبو العباس ثعلب : أجمع أصحابنا أنه لم يكن بعد ابن الأعرابى أعلم باللغة من ابن السكيت .

ومما يروى أنه كان وهو حدث يحضر مجلس أبى الحسن على اللحيانى ، فعزم اللحيانى على أن يملى نوادره ضعف ما أملى سابقا ، فقال يوما فى مجلسه : تقول العرب : « مثقل استمان

---

(١) هو أبو سعيد عبد الملك بن قريب ، كان عمدة النحو وإمام اللغة والغريب والأخبار فى زمانه . وكان أعلم الناس بالشعر ، وله فى اللغة اليد الغراء ، فاختصه الرشيد بخدمته . وعن الأصمعى أخذ كثيرون من الفضلاء والأدباء وكتبه كثيرة جدا بعضها مطبوع . ولد سنة ١٢٣ هـ واختلف فى سنة وفاته فقيل إنه مات سنة ٢١٣ وقيل سنة ٢١٥ وقيل فى صفر سنة ٢٢٦ وقيل سنة ٢١٧ .

(٢) هو علامة البصرة معمر بن المثنى التيمى ولد سنة ١١٠ هـ وتوفى سنة ٢٠٧ أو سنة ٢٠٩ أو سنة ٢١١ أو سنة ٢١٣ .وكان أعلم الناس باللغة وأخبار العرب ، عالما بالشعر و الغريب وأخبار العرب. وله مع الأصمعى وغيره من علماء عصره مباحثات خطأوه فى بعض آرائه . ومن أشهر ما وصلنا عن مصنفاته كتاب نقائض جرير و الفرزدق الذى نشره المستشرق بيفان سنة ١٩٠٥ بليدن .

(٣) هو أبو زكريا يحيى بن زياد الديلمى النحوى الكوفى الشهير بالفراء ، وهو أحد أئمة العربية الذين يحتج برواياتهم . وكان دينا ورعا يحب الكلام ويميل إلى الاعتزال توفى بطريق مكة سنة ٢٠٧ هـ عن ٦٧ سنة .

(٤) تقدمت ترجمته ص ٩ .

(٥) تقدمت ترجمته ص ٩ .

بذقنه » فقام إليه ابن السكيت فقال : يا أبا الحسن ، إنما هو « مثقل استعان بِدَفَّيْهِ » تريدون الجمل إذا نهض بحمله استعان بجنبيه . فقطع أبو الحسن الإملاء . فلما كان المجلس الثانى ، أملى فقال : تقول العرب : هو جارى مكاشرى . فقام إليه ابن السكيت فقال: أعزك الله ، وما معنى مكاشرى ، إنما هو : « مكاسرى » أى كسر بيتى إلى كسر بيته .
قال : فقطع اللحيانى الإملاء ، فما أملى بعد ذلك شيئا .

وكان يعقوب يقول: أنا أعلم من أبى بالنحو ، وأبى أعلم منى بالشعر واللغة. وقال البعض: إن ابن السكيت كان باللغة أعلم منه بالنحو .

وأخبر أبو عثمان المازنى قال : اجتمعت بابن السكيت عند محمد بن عبد الملك الزيات الوزير ، فقال محمد بن عبد الملك : سل أبا يوسف عن مسألة . فكرهت ذلك ، وجعلت أتباطأ وأدافع مخافة أن أوحشه لأنه كان صديقا لى . فألح عَلَىَّ محمد بن عبد الملك ، وقال : لم لا تسأله ؟ فاجتهدت فى اختيار مسألة سهلة ، لأقارب يعقوب ، فقلت له ماوزن « نكتل » من الفعل من قوله تعالى : فأرسل معنا أخانا نكتل .

فقال لى : نفعل .

قلت : ينبغى أن يكون ماضيه « كتل »

فقال : لا ، ليس هذا وزنه ، إنما هو نفتعل .

فقلت : نفتعل كم حرف هو ؟

قال : خمسة أحرف .

قلت : فنكتل كم حرف هو ؟

قال : أربعة أحرف .

فقلت : أيكون أربعة أحرف بوزن خمسة أحرف ؟ فانقطع وخجل وسكت .

فقال محمد بن عبد الملك : فإنما تأخذ كل شهر ألفى درهم على أنك لاتحسن وزن « نكتل »
قال : فلما خرجنا ، قال لى يعقوب : هل تدرى ماصنعت ؟ فقلت له : والله لقد قاربتك جهدى ، ومالى فى هذا ذنب .

وكان بدء أمر ابن السكيت وترقيه عند الخلفاء أنه كان يؤدب مع أبيه صبيان العامة بمدينة السلام فى درب القنطرة، حتى احتاج إلى الكسب ، فجعل يتعلم النحو واللغة، و يختلف إلى العلماء . ثم جعل يعقوب يختلف إلى قوم من أهل القنطرة ، ولما خرج يعقوب إلى سر من رأى فى أيام جعفر المتوكل ، صيره عبد الله بن يحيي بن خاقان عند المتوكل فضم إليه وأسنى له الرزق ، وأرغد عليه العيش . قال عبد الله بن عبد العزيز : ونهيته حين شاورنى فيما دعاه إليه المتوكل من منادمته فلم يقبل قولى ، وحمله على الحسد ، وأجاب إلى مادعى إليه، وكان المتوكل قد ألزمه تأديب ولده المعتز بالله ، فلما جلس عنده قال له :

بأى شيء يحب الأمير أن نبدأ ؟

فقال المعتز : بالانصراف !

قال يعقوب : فأقوم .

قال المعتز : فأنا أخف نهوضا منك .

فقام فاستعجل ، فعثر بسراويله ، فسقط ، والتفت إلى يعقوب خجلا ، وقد احمر وجهه فأنشد يعقوب:

يصاب الفتى من عثرة بلسانه وليس يصاب المرء من عثرة الرجل
فعثرته بالقول تذهب رأسه وعثرته بالرجل تبرا على مهل

فلما كان من الغد ، دخل يعقوب على المتوكل ، فأخبره بما جرى ، فأمر له بخمسين ألف درهم ، وقال : قد بلغنى البيتان .

ثم مالبث أن تغير المتوكل عليه ، وكان سبب ذلك أن ابن السكيت كان شيعيا، فبينما هو مع المتوكل فى بعض الأيام ، إذ مر بهما ولداه المعتز والمؤيد ، فقال له : من أحب إليك : أإبناى هذان أم الحسن والحسين ؟

فغض يعقوب من ابنيه ، وقال: قنبر خير منهما ، وأثنى على الحسن والحسين،فأمر الأتراك فداسوا بطنه ، فحمل إلى داره ، فمات بعد يوم و بعض يوم . وقيل : حمل ميتا فى بساط .

وقيل : بل قال : سلوا لسانه من قفاه . ففعلوا به ذلك ، فمات . وروى فى قتله غير ذلك . قيل إن المتوكل أمره بشتم رجل من قريش فلم يفعل ، فأمر القريشى أن ينال منه ففعل ؛ فأجابه يعقوب ، فعند ذلك قال المتوكل : أمرتك أن تفعل ، فلم تفعل ، فلما شتمك فعلت . فأمر بضربه ، فحمل من عنده صريعا ، وقيل مقتولا . ثم وجه المتوكل من الغد إلى ابنه يوسف عشرة آلاف درهم ، وقال : هذه دية والدك رحمه الله تعالى . وقال أبو جعفر أحمد بن محمد المعروف بابن النحاس : كان أول كلام المتوكل مع ابن السكيت مزاحا ، ثم صار جدا . فقال عبيد الله بن عبد العزيز — وهو الذى نهى يعقوب عن اتصاله بالمتوكل —

نهيتك يايعقوب عن قرب شادن إذا ماسطا أربى على كل ضيغم

فذق ، واحسُ مااستحسيتِه لاأقول إذ

عثرت لعا ، بل لليدين وللفم

وقد اختلف فى تاريخ وفاته ، ولم يذكروا تاريخ مولده على التحديد . قال الخطيب [1] « بلغنى أن يعقوب بن السكيت مات فى رجب من سنة ثلاث ، وقيل : من سنة أربع ، وقيل : من سنة ست وأربعين ومائتين . وقد بلغ ثمانيا وخمسين سنة » وكذلك قال ابن خلكان إنه مات فى ليلة الاثنين ٥ رجب سنة ٢٤٤ ، وقيل سنة ٢٤٦ وقيل سنة ٢٤٣ ونحو ذلك عن ياقوت . وقد اتفق الحافظ ابن كثير [2] فى تاريخه والعماد فى الشذرات [3] والسيوطى فى بغية الوعاة [4] على أنه مات فى سنة ٢٤٤ ، وعلى هذا فيكون تاريخ مولده نحو سنة ١٨٦ إذ لم يختلفوا فى أنه عاش ٥٨ سنة .

ولابن السكيت شعر رائق ، بيد أنه قليل ، فمن ذلك قوله :

نفسى تروم أمورا لست مدركها مادمت أحذر ما يأتى به القدر

---

(١) تاريخ بغداد للخطيب ١٤ / ٢٧٣ — ٢٧٤ .

(٢) تاريخ الحافظ بن كثير ١٠ / ٣٤٦ .

(٣) شذرات الذهب لابن العماد ٢ / ١٠٦

(٤) بغية الوعاة للسيوطى ٤١٩

ليس ارتحالك فى كسب الغنى سفراً　　لـكن مقامك فى ضر هو السفر

ومن ذلك أيضا قوله :

ومن الناس من يحبك حبا　　ظاهر الحب ليس بالتقصير

فإذا ما سألته عشر فلس　　ألحق الحب باللطيف الخبير

ومنه (من أبيات) .

وكل الحادثات إذا تناهت　　فموصول بها فرج قريب !

كتبه : وجاء فى مقدمة كتابه الألفاظ : «وكان مقداما جسورا على العلماء، شيعيا، ولاحظ له من السنن والدين ، وله تصانيف كثيرة فى النحو ومعانى الشعر وتفسير دواوين العرب ، زاد فيها على من تقدمه ، ولم يكن بعد ابن الأعرابى مثله » .

وذكر ابن النديم فى الفهرست كتبه فقال: والشعراء الذين عمل ابن السكيت شعرهم هم : أبو النجم العجلى ، وأبو نواس ، وأعشى باهلة ، والأعشى الـكبير ، وبشر بن أبى خازم ، وتميم بن أبى مقبل ، وجرير ، والحطيئة ، وحميد بن الأرقط ، وحميد بن ثور الرياحى ، والخنساء ، وزهير ، وسحيم بن وثيل العاملى الرياحى ، وطرفة ، والعباس بن مرداس ، وعروة ابن الورد والـكميت، ولبيد ، ومهلهل ، والنابغة الجعدى .

ومما نشر من كتبه :

(١) كتاب مختصر تهذيب الألفاظ، نشره الأب لويس شيخو اليسوعى وطبعه الطبعة الثانية فى بيروت سنة ١٨٩٧ .

(٢) كتاب القلب والإبدال، نشره أوغست هفنر فى بيروت سنة ١٩٠٣ .

(٣) كتاب الأضداد ، وقد نشر فى مجموعة من كتب الأضداد للأصمعى والسجستانى وابن السكيت بعناية المستشرق الدكتور أوغست هفنر فى بيروت سنة ١٩١٢ .

(٤) كتاب إصلاح المنطق وهو من أهم كتبه : وقد نشره فى مجموعة ذخائر العرب

الأستاذان أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون عن دار المعارف بمصر وطبع الطبعة الثانية سنة ١٩٥٦ .

(٥) ومما أعتزم نشره له ـ إن شاء الله ـ شرح ديوان النابغة إذ عثرت له على مخطوطة نفيسة عليها تعليقات قيمة .

(٢) أبو حاتم السجستانى

هو سهل بن محمد بن عثمان بن يزيد أبو حاتم الجشمى السجستانى من ساكنى البصرة ، كان إماما فى علوم القرآن واللغة والشعر .

أخذ عنه أبو بكر بن دريد والمبرد وغيرهما ، وكان أعلم الناس بالعروض و إخراج المعَمّى ، حاذقا بذلك ، دقيق النظر فيه . وقرأ سيبويه مرتين على الأخفش . وكان يُعَدُّ من الشعراء المتوسطين ، وعليه اعتمد أبو بكر ابن دريد فى اللغة .

وكان صالحا عفيفا يتصدق كل يوم بدينار ، ويختم القرآن فى كل أسبوع .

وكان أبو حاتم كثير التصانيف فى اللغة ، وصنف فى النحو والقراءة .

وكانت وفاته فى المحرم أو فى رجب سنة ٢٤٨ هـ بالبصرة فى خلافة المستعين ، وقيل سنة ٥٠ أو ٥٤ أو ٢٥٥ ، وقد قارب التسعين[1] .

ومما طبع له من مصنفات[1] : كتاب المعمرين عنى بطبعه المستشرق جولد تسيهر فى ليدن ١٨٩٦[2] وكتاب الأضداد (انظر ما قيل عنه فى ترجمة ابن السكيت) .

(٣) أبو سعيد السكرى

هو أبو الحسن بن الحسين بن عبيد الله بن عبد الرحمن بن العلاء بن أبى صفرة بن المهلب العتكى المعروف بالسكرى أبو سعيد النحوى اللغوى الراوية الثقة المكثر ولد سنة ٢١٢ هـ .

---

(١) انظر وفيات الأعيان لابن خلكان ؛ ونزهة الألباء ص ٢٥١ ، وبغية الوعاة للسيوطي ، وتاريخ ابن الأثير ٧ / ٤٦ والنجوم الزاهرة لأبي المحاسن ١ / ٧٦٦ .

وكان شيوخه من فحول العلماء الأجلاء فى اللغة والأدب ، وقد سمع يحيى بن معين وأبا حاتم السجستانى والعباس بن الفرج الرياشى ومحمد بن حبيب والحارث بن أبى أسامة وأحمد بن الحارث الخزاز وعمر بن شبة وخلقا سواهم .

وكان من تلاميذه الذين أخذوا عنه واشتهروا بالإفادة منه فى اللغة والأدب : محمد بن عبد الملك التاريخى ، ومحمد بن أحمد بن إبراهيم الحكيمى ، وأبو سهل بن زياد القطان وغيرهم .

وكان رحمه الله ثقة دينا صادقا يقرىء القرآن ، واشتهر برسوخ قدمه فى النحو واللغة والأنساب ، حتى بذ معاصريه ، وكان راوية البصريين ومرغوبا فى خطه لصحته .

مؤلفاته : وانتشر عنه من كتب الأدب شىء كثير مما لم ينتشر عن أحد من نظرائه ، وكان إذا جمع جمعا فهو الغاية فى الاستيعاب ، ومن مصنفاته : كتاب النقائض ، كتاب النبات ، كتاب الوحوش ، كتاب المناهل والقرى . كتاب الأبيات السائرة . وجمع أشعار جماعة من الشعراء منهم : امرؤ القيس . النابغة الذبيانى . . النابغة الجعدى . قيس بن الخطيم . زهير . الحطيئة . لبيد . جران العود النميرى . تميم بن أبى مقبل . دريد ابن الصمة . هدبة بن خشرم . أشعار اللصوص . الأعشى . مزاحم العقيلى . الأخطل .

ومما طبع له : (١) ديوان الهذليين : نشره القسم الأدبى بدار الكتب فى ثلاثة أجزاء سنة ١٩٥٢ (٢) كتاب أشعار اللصوص نشرت قطعة منه فى ليدن سنة ١٨٦٩ (٣) ديوان جران العود النميرى : نشره القسم الأدبى بدار الكتاب سنة ١٩٣١ (٤) ، (٥) ديوان زهير وديوان كعب : نشرهما القسم الأدبى سنة ١٩٤٥ ، سنة ١٩٥٠ (٦) ديوان الحطيئة نشره جولد تسيهر (كما قلنا سابقا) سنة ١٨٩٣ .

(٤) خالد بن كلثوم

وقد ذكر فى فهرس الرواة من هذه الطبعة ص ٤١٦ فى عدة صفحات فى مخطوطة (ع) ، (وم) . وجاء فى (وم) ص ٣٠٣ : « ولا أدرى مَنْ خالد هذا » وقد ذكر فى (ع) فى نفس الموضع وفى نفس الصفحة السابقة (٣٠٣) أنه خالد بن كلثوم .

قال ابن النديم فى الفهرست ص ٦٦ « ومن علمائهم أيضا ـ أى علماء الكوفيين ـ ورواتهم خالد بن كلثوم الكلبي[1] من رواة الأشعار والقبائل ، وعارف بالأنساب والألقاب وأيام الناس ، وله صنعة فى الأشعار والقبائل » .

ولم أجد عنه شيئا آخر غير ما ذكرت فى غير « الفهرست » من المراجع .

(١) انظر فهرس الرواة ص ٤١٥ ، ٤١٦ من هذه الطبعة أمام « خالد » ، « الكلبى » .

ترجمة الحطيئة

نشأ الحطيئة خاملا فى أول أمره ، إذ أنه من أسرة وضيعة ، تنكره أشد النكر ، وتتجافاه أقسى مجافاة ، فلا تحاول أن تعترف بنسبته إليها ، ولذلك تردّد نسبه بين عِدّة آباء من جهة ، ودفعه ذلك إلى أن يتردّد بين قبائل مختلفة ، ينسب نفسه لتلك تارة ، فإذا غضب عليها نسب نفسه إلى أخرى .

ولعلى أقدم بين يدى الكلام على الحطيئة بهذه المقدمة لأبين السبب فى الاختلاط الشديد الذى نجده فى روايات الرواة عن حياته من جهة ، ولكى نُوَطِّن أنفسنا على أن نقف من هذه الروايات الكثيرة على تاريخ حياته موقف الشاك الممعن فى الشك ، وذلك لكى نحاول أن نخرج منها بصورة أكثر قربا من الواقع الإنسانى ، وأكثر قربا من شخصيته الحقيقية غير الملموسة ، التى عاش فى إطارها فى الجاهلية والإسلام .

اسمه ولقبه ونسبه وأسرته

اسمه : جرول[1] بن أوس بن جُؤيَّة بن مخزوم بن مالك[2] بن غالبة بن قُطَيْعة بن عَبْس بن بغيض بن رَيْث[3] بن غَطَفَان بن سعد بن قيس عيلان بن مضر بن نزار بن مَعَدّ ابن عدنان .

كنيته : أبو مُلَيْكَة ، نسبةً إلى ابنته مُلَيْكة .

---

(١) جرول فى اللغة : الحجر .

(٢) هكذا فى الأغانى ٢ / ١٥٧ ، وأسقط فى الخزانة (١ / ٤٧٣) مالك ، والألف واللام من ريث .

(٣) خزانة الأدب ١ / ٤٠٩ ، غ ٢ / ١٥٧ .

لقبه : واختُلِفَ في سبب تلقيبه بالحطيئة ، فقيل : لُقِّبَ بذلك لقصره وقربه من الأرض ، ففي الصحاح : الحطيئة الرجل القصير .

وقال ثعلب : وسمِّىَ الحُطَيْئةَ لدمامته .

وقيل : لقب بذلك لأنه ضرط بين قوم ، فقيل له : ماهذا ؟ فقال : حُطَيئة ! (يقال : حَطَأَ إذا ضرط) .

وقيل : لقب بذلك لأنه كان مَحْطوءَ الرِّجْل . والرِّجْـلُ المَحْطُوءَةُ : التى لاأخمصَ لها .

فنرى من هذا مقدار مايحيط باسم الحطيئة « جرْول » ولقبه « الحطيئة » من التحقير والاتّضاع .

نسبه : وقد شك المؤرخون القُدامَى فى نسبه ، فقال أبو الفرج : ونسبه مُتَدافَعٌ بين القبائل ، وكان ينتمى إلى كل واحـدة منها إذا غضب على الآخرين[١] ، وكان يدّعى أنه ابن عمرو بن علقمة أحد بنى الحارث بن سَدُوس . وعن محمد بن سلاّم قال : كان الحطيئة ينتمى إلى بنِي ذهل بن ثعلبة ، فقال يمدحهم :

إن اليمامةَ خَيْرُ ساكنِها ... أهلُ القُرَيّة من بنى ذُهْلِ

قال : والقُرَيّةُ منازلهم ، ولم ينبت الحطيئة فى هؤلاء[٢] . وكان الحطيئة إذا غضب على بنى عبْس يقول : أنا من بنى ذُهل ، وإذا غضب على بنى ذهل قال : أنا من بنى عَبس[٣] !

قال الأصمعى : وقَدِمَ الحطيئةُ الكوفةَ منزل بنى عَوْف بن عامر بن ذهل يسألهم ، وكان يزعم أنه منهم[٤] .

* * *

ومما سبق نرى إلى أى حد كانت حَيرة الحطيئة ، واضطراب نفسه بسبب شعوره بالنقص لأنه لايعرف له أبًا بعينه ، أوقبيلة بعينها ، ويؤيد ذلك ماذكره أبوالفرج : أنه سأل أمّه؟

---

(١) غ ٢ / ١٥٧   (٢) المرجع السابق ٢ / ١٥٨

(٣) غ ٢ / ١٥٨   (٤) غ ٢ / ١٥٨ ، ١٥٩

أبوه فخلطت عليه، فهجاها[1]، ثم ساق هذا الخبر: «كان أوس بن مالك العبسيّ تزوج ابنةَ رياح بن عمرو بن عوف بن الحارث بن سَدُوس بن شيبان بن ذُهل بن ثعلبة، وكان له أمة يقال لها «الضَّرّاء» فأعلقها بالحطيئة، ورحل عنها. وكان لبنت رياح أخ يقال له: الأفقم، فولدت الحطيئة. فجاءت به شبيها بالأفقم. فلما سألتها بنت رياح عن الطفل، قالت لها: مِن أخيك! وهابت أن تقول لها منْ زوجك، فشبهته بأخيها.! فقالت لها: صدقتِ[2]!

إخوته: ولما مات أوس، ترك ابنين من الحرّة هما أخوا الحطيئة من أبيه. أما الضرّاء أمه، فقد تزوجت رجلا من بنى عَبْس، فولدت له رجلين، فكانا أخوى الحطيئة من أمه[3]، وأعتقت بنتُ رِياح الحطيئة، وربّته، فكان كأنه أحدُهما، وترك الأفقم نخلاً باليمامة.

ميراثه: وأتى الحطيئة أخويه من أوس بن مالك، وقد كانت أمه لما أعتقتها بنتُ رياح اعترفت أنها اعتلقت من أوس بن مالك، فقال لهم: أفْرِدُوا إلىّ من مالكم قطعةً.

فقالا: لا، ولكن أقمْ معنا، فنحن نُواسيك!

فقال:

أأمرتمانى أن أقيم عليكما ... كلاّ لَعمرُ أبيكما الحبّاقِ

عَبدان خيرُهما يُشَلُّ بضَبْعِه ... شلَّ الأجير قلائصَ الوَرّاقِ

وقد هجرَ أمّهُ لما أبت أن تدُلّهُ على أبيه. وسأل بنى ذهل ميراثه من الأفقم، فأعطوْهُ نخلاتٍ من نخل أبيهم، فلم تقنعه النُّخَيلاتُ، وأقام فيهم زمانًا، فسألهم ميراثه كاملا من الأفقم، فلم يُعطوهُ شيئًا، وضربوه، فغضب عليهم وهجاهم[4]، ثم عاد إلى بنى عبس،

---

(١) غ ٢ / ١٦٠ (٢) غ ٢ / ١٥٩

(٣) وهناك أخ للحطيئة تنسب إليه أبيات الحطيئة فى أبى بكر فى حرب الردة (انظر الديوان ص ٣٣٠).

(٤) كما حدث للشاعر طرفة بن العبد بالنسبة لميراث أمه وردة.

وانتسب إلى أوس بن مالك[1] .

وهكذا نرى الحطيئة الصبي أو الشاب شريدا بين أبويه أوآبائه الذين لايعرف من بينهم أباه الحقيقي ، فينتسب إليه ، وهو طريد بين إخوته الذين يأبَوْن عليه أن يعترفوا له بحقه في أن يرث كما ورثوا . ولعل هذا من أقوى الأسباب — إن لم يكن السبب الحقيقي — في طبع شخصية الحطيئة بالطابع « البوهيمي » وأعني به الشخص الهائم دائما أبدا على وجهه في غير استقرار ، تلك الشخصية التي يصورها الأقدمون أحقر تصوير ، ناسين تلك العوامل القوية التي طبعته بطابعها ، والتي يمكن أن نلقي عليها أكبر المسئولية في تنشئة الحطيئة ، واتصافه بصفات يأباها الخلق الكريم كالبخل .

أولاده وحياته العائلية :

ذكر المؤرخون أن امرأته كانت تسمى : « أُمامة » ، وله ابنة تسمى « مُلَيْكة » وكان يُكنى بها[2] . والظاهر أنها كانت — على عكس أبيها — جميلة إلى حدّ أن زعم الرواة أن الزبرقان حدثته نفسه بأن يتزوجها ، وأنهم بذلك أوغروا صدر امرأته هنيدة على الحطيئة[3] . ومن أولاده ولد يسمى إياساً[4] ، وآخر يسمى أوْسًا[5] . والظاهر أنه ـ كإنسان ـ كان يحب أولاده وزوجته ، ويدلّ على ذلك تلك القصة التي ذكرها أبو الفرج :

« أراد الحطيئة سفرا ، فأتته امرأته ، وقد قُدِّمت راحلته ليركب فقالت :

اذكر تحنُّننَا إليك وشوقنا　　　واذكر بناتك إنهن صغار

فقال حطُّوا لا رحلتُ لسفر أبدا[6] . وبهذا وبتلك الروح الشعرية التي ظهرت في مقطوعته التي يخاطب بها عمر حين أراد سجنه[7] مايدل على أنه لم يكن مسلوبا من الحنان الإنساني الذي لايخلو منه خلق إنسان إزاء أولاده وزوجته .

---

(1) غ ٢ / ١٦١ .

(2) غ ٢ / ١٧٣ ، ١٧٨　　(3) غ ٢/ ١٨١　　(4) غ ١٦/ ٣٨

(5) غ ٢ / ١٧٧ ، وذكر إفرام البستاني في الروائع ابنا آخر له يسمى سوادة (المقدمة من الروائع العدد ٢٩ ط)　　(6) غ ٢ / ١٧٧ .　　(7) ص ٥٠٨ من هذه الطبعة .

حياته فى الجاهلية :

ليس من السهل معرفة السنة التى وُلد فيها الحطيئة ، والحياة التى كان يحياها ، ولكننا نستطيع أن نقول : إنه من غير شك كان قليل المنزلة ، بسبب أنه كان مغموز النسب ، وربما كان حقيراً مهيناً فى صباه ، ويكفى للدلالة على ذلك وَسْمُه بهذه الصفة التى تكمن فى لفظة « الحطيئة » وكم جرّ اسم هازىء على صاحبه من صنوف البلايا والرزايا أكثر مما تجره العيوب الجسمية والخَلْقية المختلفة . فالاسم هو عنوان الشخصية أو الصورة التى تؤثر على الشخص وتلقى عليه ظلالا ما . فربما أطلق على شخص ما نَبز أو اسم ساخر ، فيجعل هذا الاسم صاحبه ضحكة هُزَأة طول حياته . وأغلب الظن أن لقب الحطيئة قد أحاطه بهالة من التحقير والازدراء زادته ألماً على الألم ، وهو المنبوذ المضيع ، ولذلك كله ، ولما وهبه الله تعالى من هبة الشعر ، وطّد نفسه على الاتصال بكبار الشخصيات يمدحهم فإن أبوا عليه أن يعطوه هجاهم . وممن اتصل بهم فى الجاهلية : علقمة بن عُلاثة ، وقد فضّله على عامر بن الطفيل فى منافرة مشهورة ، وزيد الخيل ، وقد مدحه مرغما خوفا من بطشه[١] ، وحاتم الطائى[٢] وغيرهم كثير من فزارة وعبس ، ولم يصل إلينا إلا القليل من هذا الشعر بالنسبة لما قاله فى الإسلام[٣] .

فى أوائل الإسلام :

يختلف المؤلفون فى زمن إسلام الحطيئة ، فيرى ابن قتيبة أنه لم يسلم إلا بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم ، لأنه لم يجد له ذكرا فيمن وفد عليه من وفود العرب[٤] ، ويرى غيره ومن جملتهم ابن حجر أنه أسلم فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم . ولكنهم يتفقون جميعا على القول أنه كان « رقيق الإسلام » فاسد الدين . وقد اشترك مع المرتدين فى مقاومة أبى بكر الصديق ، وقد قال أبياتا فى ذلك[٥] . ولما انتصر أبو بكر على المرتدين ، وقع أسيراً سنة ١١

---

(١) الروائع لإفرام البستانى عدد ٢٩ (المقدمة : و) .

(٢) ذيل الأمالى ص ١٥٢ (٣) الروائع (المقدمة و).

(٤) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ص ١٨٠ (٥) الديوان ص ٣٣٠

هجرية[1] وقد أقلع عن الكفر وأسلم . والظاهر أنه كان حسن العقيدة ، لدرجة أنه اشترك في معركة القادسية سنة ١٤ هجرية في أوائل خلافة عمر . وأخذ على نفسه نصرة الدين بتحريض المسلمين على الاستبسال ضد الفرس[2] .

مع الزبرقان يقول الأستاذ إفرام البستاني بروح المتحامل على الشاعر الحطيئة : « . . . . فلم يترك شريفا معروفا حتى طرق بابه ، ولاحيا وجيها إلا نزل عليه من أبناء فزارة إلى أحياء عبس إلى القرشيين ، يرغبهم تارة في مديحه ، ويرهبهم طوْرًا بهجائه . وهم على كل حال لايأمنون شر لسانه ، ولايطمئنون إلى مايقوله فيهم ، وإن ظهر مدحا ، فكثر التشكى منه ، والتبرّم من سلاطته على الأعراض » .

ولعمرى إن الذى دفع هذا الكاتب إلى ماقال، هو أنه يريد أن يتصوّرحياة الشاعر المادية أوالمعيشية ، فشاء خياله و بعض الصفات التى رماه بها بعض الإخباريين أوالمؤرخين أن ينعته بما نعته به فى العبارة السابقة ، مع أنى قد قرأت الديوان بالإضافة إلى أخبار الشاعر فى كتب الأدب ، فلم أستطع أن أؤولها هذا التأويل الذى ذكره فى عبارته السابقة التى نقلتها للقارىء . لا اعتقادا بأكثر مافيها ، بل لأضع أمامه كيفية جرأة بعض الكتاب والعلماء والدارسين فى محاولتهم التهجم والاستنباط من النصوص والتهويل فيها حين كتابتها . والخروج بذلك عن مناهج العلم ، ومحاولة الاقتصاد فى التعبير اللفظى حتى نكون أمناء فى نقل التاريخ ، والحديث عن الشخصيات التاريخية حديث المنصف الفطن . لا حديث الذى يجرى وراء مؤرخ أومؤرخين قدماء حاولوا أن يكتبوا فى شىء من العصبية وعدم تحكيم العقل أو المنطق . وأعنى به المنطق العقلى والنفسى معا . و إذا كان المؤرخ اللبنانى الأستاذ إفرام البستانى يذكر تدليلا — على كل ماذكره فى العبارة السابقة — حادثة الزبرقان مع الحطيئة وهجائه له ، فإن من يرجع إلى تلك الأخبار التى نقلتها بحذافيرها عن الكتب القديمة ، ووضعتها أمام عينى القارىء المتفهم البصير الفطن ، ليجد أن الحطيئة لم يذنب فى أمر الزبرقان . وأن الحادثة فى غير حاجة إلى هذا التهويل الذى صاغها فيه الكاتب الفاضل . وأجد أنى فى غير حاجة إلى ذكر

---

(١) تاريخ الطبرى ٢ /١٨٧٨ (٢) تاريخ الطبرى ١ /٢٣٩٣

تلك الحادثة فهى مذكورة فى الديوان مفصلة لمن شاء أن يرجع إليها[١] .

وقد كان الروح الشائع فى قصيدته الأولى الهمزية روح المعاتب[٢] ، كذلك كان موقفه مع زوج الزبرقان موقف النبيل ذى الأخلاق العالية إلى حد أنه رفض أن يرحل قبلها على الراحلة وقال لها مامعناه : بل أنت أولا ، كعادة الأوربيين إذ يقدمون المرأة على الرجل « Ladies first »[٣] .

* ☆ *

مع عمر بن الخطاب :

وقد حبسه عمر لما شكاه الزبرقان ، بسبب سينية الحطيئة المشهورة ، التى قال فيها هذا البيت :

دع المكارم لا ترحل لبغيتها   واقعد ، فإنك أنت الطاعم الكاسى

ولما أقرّ حسان بحدّة هذا الهجاء ، حبسه عمر ، ولم يعف عنه إلا حينما استعطفه بأبياته العاطفية المؤثرة ، وشفع له عبد الرحمن بن عوف . فأخرجه الخليفة وقال له : إياك وهجاء الناس قال : إذًا يموت عيالى ، هذا مكسبي ومنه معاشى .

وفى رواية أن عمر اشترى منه أعراض المسلمين جميعا بثلاثة آلاف درهم ، وأخذ عليه ألا يهجو أحداً بعدها[٤] ، فوفى بعهده مدة حياة عمر ، ثم رجع إلى الهجاء بعد وفاته ، كما أورد أبو الفرج[٥] .

ويقال إن الحطيئة لما قدم المدينة أول خلافة عمر ، سأله الخليفة : كيف كنتم فى حربكم ؟

قال : كنا ألف فارس حازم !

---

(١) انظر الصفحات من ٩٠ إلى ٩٧ وشرح القصيدة رقم ٣٤ (٩٨ — ١١٥) ، ص ١٣٥ — ١٣٨ .

(٢) شرح القصيدة رقم ٣٤ (ص ٩٨ — ١١٥) .

(٣) الروائع عدد ٢٩ (المقدمة : ى)

(٤) غ ٢/٥٧   (٥) غ ٢ / ٥٦ ، ٥٨

قال : وكيف يكون ذلك ؟

قال : كان قيس بن زهير فينا وكان حازما فكنا لا نعصيه ، وكان فارسنا عنترة ، فكنا نحمل إذا حمل ، ونحجم إذا أحجم ، وكان فينا الربيع بن زياد ، وكان ذا رأى فكنا نستشيره ولا نخالفه . وكان فينا عروة بن الورد فكنا نأتم بشعره ، فكنا كما وصفت لك .

فقال عمر : صدقت[1] !

ونظر الحطيئة إلى ابن عباس فى مجلس عمر رضى الله عنه فقال : مَنْ هذا الذى نزل عن الناس فى سِنِّه ، وعلاهم فى قولهم[2] ؟!

رحيله إلى حوران :

ولما رأى أبواب الرزق سُدَّت فى وجهه ، قال لعمر : ياأمير المؤمنين : اكتب لى كتابا إلى علقمة بن عُلاثة فى حوْران ـ وكان قد اتصل به الحطيئة فى الجاهلية ـ لأقصده به ، فقد منعتنى التكسب بشعرى ، فصادف علقمة قد مات ، والناس منصرفون عن قبره ، فوقف عليه ، وأنشد قصيدة لامية . فقال له ابنه : كم ظننت أن علقمة يعطيك ؟

قال : مائة ناقة !

قال : لك مائة ناقة ، يتبعها مائة من أولادها . وأعطاه إياها[3] .

اتصاله بأبى موسى الأشعرى[4] :

وفى تلك الأثناء اتصل بأبى موسى الأشعرى ، وسواء ثبتت له القصيدة التى يمدحه بها[5] أولم تثبت[6] ، فإننا نعرف بالاستناد إلى الطبرى والأغانى أن الحطيئة اتصل بأبى موسى

---

(١) هامش الخزانة ١ / ٤٧٣

(٢) الأمالى ٢ / ١٥٧ غ ٢ / ١٩١ ، التنبيه ١١٣

(٣) غ ١٥ / ٥٨ (٤) الروائع للبستانى ٢٩ يب

(٥) الديوان ص ٢٢٥

(٦) راجع فى أنها من صنع حماد ، والآراء فى ذلك مقدمة القصيدة ، ٥من هذه الطبعة ص ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، شع ١٥ ، غ٢ / ٥٠ — ٥١ / ١٧٣ ، ١١ / ٢٩

سنة ٢٣ هـ أى فى آخر خلافة عمر ، ووصله قائلا :

« سددت فمه بمالى أن يشتمنى ! »

مع الوليد بن عقبة :

وقد اشترك الحطيئة فى محنة الوليد بن عقبة — حينما شرب الخمر — وحدّه علىّ بن أبى طالب فى خلافة عثمان . وذكرت للحطيئة أبيات تذكر الحادثة[1] . ورويت روايتين : إحداهما تتهكم بالوليد ، والأخرى فى موقف المدافع عنه ، على أنى أميل إلى الرواية الأولى لما فى طبع الحطيئة وميله إلى السخرية . وكذلك ذكرت له فى الديوان قصيدة لامية (رقم ٥٤ ص ٢٣٩) يمدحه فيها :

اتصاله بسعيد بن العاص :

وقد اتصل الحطيئة بسعيد بن العاص ، والى المدينة فى خلافة معاوية . فمَدَحَهُ بمدائح رائعة ، ودار بين إياس بن الحطيئة وخالد بن سعيد بن العاص حديث بصددها[2] .

وصيته :

ولما أحسّ بالموت ، وعرف آله ذلك ، طلبوا منه أن يوصِىَ ، فذكر الرواة له: « وصية غريبة ظريفة . . . نرى أن الرواة والأدباء بعدهم ، تصرّفوا فيها كلٌّ على ذوقه ، فوسّعوا بعض أقسامها ، وزادوا فيها ، لاسيما الاستشهادات الشعرية وحكم الحطيئة فى أصحابها ، حتى غدت الوصية نوعا من الأحكام الأدبية ، ممزوجا بشىء من المجون ، دالاً على أطوار غريبة ، وولع بالتهكم شديد ، ونحن لاننكر أن فى أصلها شيئا من ذلك[3] » .

موته :

حاول الأستاذ البستانى صاحب مجموعة الروائع تحقيق زمن ميلاده وزمن وفاته ، فرجح

---

(١) الديوان : ٢٣٢ — ٢٣٦

(٢) غ ١٦ / ٣٩ وانظر الصفحات ٢٤٦ ، ٢٤٧ ؛ ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٣ من الديوان .

(٣) الروائع ٢٩ (زيد) وقد حرصت فى هذه الطبعة أن أذكر رواية المخطوطة (ع) وأتبعها فى الهامش بالروايات الأخرى ومن هذا يتبين القارىء مقدار مازاده الرواة على وجه التقريب (انظر الوصية فى نهاية باب الهجاء ٣٥٥ — ٣٥٨).

ـ ونحن نوافقه على هذا الترجيح ـ ، أن يكون ميلاده فى الربع الأخير من القرن السادس ، ووفاته سنة ٥٩ هـ ، وهى السنة الأخيرة من خلافة معاوية ، وقد رجّح بذلك رأى ابن حجر فى الإصابة[١] وابن قتيبة[٢] وأبى الفرج[٣] ، ولذلك يتفق مع ابن سلاّم فى أنه « قد عُمِّرَ دهراً فى الجاهلية » ويتفق مع المؤرخين الذين يقولون إنه من المعمَّرين ، فهو على هذا التقدير لاتدركه الوفاة إلا و يكون قد ناهز المائة من عمره[٤] .

صورته :

يرسم المؤرخون للحطيئة صورة بدنية قبيحة ، إذ كان قصيراً دميما ، أفقم ـ أى بارز اللحى الأسفل[٥] ـ سيِّئ الخَلق ، لاتأخذه العين[٦] ، قبيح المنظر ، رثّ الهيئة[٧] ، يلبس خشن الثياب وخلقها . و يقال إنه اطّلع فى رَكِىّ أوحَوْض ، فرأى وجهه فقال :

أرى لى وجها شوّه الله خَلْقَه فقُبِّح من وجه وقُبِّحَ حامله[٨]

وأذكر بهذه المناسبة قول المازنى ـ رحمه الله ـ وكان يتمعض من صوته فى المذياع ، ومن وجهه فى المرآة .

أنظر إلى وجهى هذا اللعينْ واحمدعلى وجهك ربّ الفنونْ

أخلاقه :

يرسم المؤرخون للحطيئة صورة شريرة . فيقول أبو الفرج : وكان ذا شرّ وسَفَهٍ[٩] . وقال الأصمعى : كان الحطيئة جشعا سئولا مُلحفا . دنىء النفس . كثير الشرّ ، قليل الخير . بخيلا ، مغموز النسب ، فاسد الدين[١٠] .

وفى موضع آخر : وكان دنىء النفس . وماتشاء أن تطعن فى شعر شاعر إلا وجدتَ فيه مطعنا ، وما أقل ماتجد ذلك فى شعره[١١] ! وعدّد أبوعبيدة بخلاء العرب فقال :

---

(١) خزانة الأدب للبغدادى ١ / ٤٠٩ (٢) الشعر والشعراء ص ١٨٤
(٣) غ ١٦ / ٣٩ ، ٤٠ (٤) الروائع ٢٩ .
(٥) المصدر السابق (يا) . (٦) غ ٢ / ١٨١ . (٧) غ ٢ / ١٦٣ .
(٨) الديوان ٢٨٢ (٩) غ ٢ / ١٥٧ (١٠) غ ٢ / ١٦٣ .
(١١) غ ٢ / ١٦٥

بخلاء العرب أربعة : الحطيئة ، وحُمَيْد الأرقط ، وأبو الأسود الدؤلى ، وخالد بن صفوان[1] .
وبلغ من قسوة النظرة التى رماه بها الناس أن ضربوه مثلا للدناءة . فقال أبو الفرج عن القتّال الكلابى : « كان فى دناءة نفسه يشبه الحطيئة ! »[2] .

وقد زاد على المؤرخين السابقين الأستاذ البستانى صاحب الروائع ، فنصب نفسه فى التحامل عليه ، ولم يحاول أن ينصف الحطيئة الإنسان ، برغم أنه أحسّ من خلال شخصيته ذلك . فمرّ بتلك اللمحة سريعا قائلا : على أن هـذا الرجل اللئيم الطباع ، الخبيث اللسان ، المنافق فى دينه . . . . . . كان رقيق القلب أحيانا ، شفيقا ، عطوفا على امرأته . . . وإننا نحترم هذه العاطفة فى أىّ شخص كان[3] » .

أقول : إن الحطيئة — رغم أقوال المؤرخين القدامى — لم يكن يخلو من صفات ، أقل مايقال فيها أنها لاتخرجه من إطار الإنسانية العام الذى كاد ينتزعه منه المؤرخون الأقدمون انتزاعا . ومما لاشك فيه أن الحطيئة ، كمعظم ذوى الشخصيات التاريخية التى عاشت فى عصر ندر فيه التدوين أوانعدم . لم تصلنا أخباره تامة كاملة عن طريق أيد أمينة .

أقول : لم تصلنا جميع أخباره ، حتى نستطيع أن نحكم على الحطيئة هذا الحكم الجائر الذى شاء هوَى معاصريه وخيالهم أن يصوره بمثل هذه الصورة التي أُحس بأنها تبعد بعداً ما عن الحقيقة . وقد بدأ المجتمع يعادى الحطيئة منذ وُلِدَ ، ولا أستبعد أن يكون قد سخر به منـذ صباه سخرية أحنقته . ولا شك عندى فى أن كل تصرف خاطىء مهما كان صغيرا ، كان يبالغ فيه ، وهو حينذاك يقترب من الحديث الشريف الذى يقول: « إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريفُ تركوه، وإذا سَرَق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحدّ » ولاشك أن هفوات الحطيئة وصغائره ، ككل إنسان ناقص له هفواته وصغائره ، كان يحاسب عليها حسابا عسيرا ، وكان من الطبيعى أن يقابل الحطيئة هذا العداء الاجتماعى بمثله أو بأشدّ منه . وهذا هو ما أحاط به وبشخصيته . ولعل هذا التصوير المنيف الذى يحاط به هو امتداد لعـداء

(١) غ ٢ / ١٦٣ (٢) غ ٢ / ١٦٥ (٣) الروائع (يو ، يز) .

المجتمع له . ولعل الزبرقان وقبيلته كان لهم فضل أىّ فضل فى تشويه شخصيته ، فقد رويت قصة فى أيام عمر بن الخطاب تدل على بخل الزبرقان، إذ نزل بمائه عبد الله بن أبى ربيعة فحلّاه عن الماء . فقال له عمر : أتمنع ماءك من ابن السبيل ؟ والذى نفسى بيده ، لئن بلغنى أنك منعتَ ماءكَ من أبناء السبيل لاسا كنتنى بنجد أبدا » . وذكر بعض أبيات لبنى أنف الناقة يعيّر الزبرقان مافعله[1] . وإنى لأعجب من الرواة الذين لم يحاسبوا الزبرقان على بخله ، وعلى ردّه على عمر هذا الرد المتنطع قائلا : «ياأمير المؤمنين ، ألا أمنع ماء حفر آبائى مجاريه ومستقره وحفرته أنا بيدى» ، لم يحاسب الرواة الزبرقان على ذلك ، ثم يحاسبون الحطيئة على هجائه البخلاء ، ومن بينهم الزبرقان .

فما يدلُّ على بصيص ضئيل من حسن خلق كان يستكنُّ فى قرارة نفسه : إنه أبى أن يتقدم امرأة الزبرقان ، وقال لها : بل تقدمى أنت ، فأنت أحق بذلك ! « ففعلت ، وتثاقلت عن رَدِّها إليه ، وتركته يومين أو ثلاثة ![2] » . وكذلك نلاحظ بوضوح أنه قد أبَى أن يهجو الزبرقان فى أول الأمر ، على رغم إلحاح بنى شماس القريعيين رهط بغيض ممدوحه قائلا : « لاذنب للرجل عندى ، حتى أرسل الزبرقان إلى رجل من النمر بن قاسط ، فهجا بغيضا ، فحينئذ بدأ الحطيئة فى هجاء الزبرقان[3] ! » ومع ذلك فقد بدأ هجاءه بعتاب رقيق جعل عمر — لما سمعه من الزبرقان شاكيا — يقول : ما أسمع هجاء ولكنها معاتبة[4] ! وقد رفض أيضا هجاء أوس بن حارثة الطائى لما حاول قوم من أهله تحريضه على هجائه قائلين : اهجه ولك ثلاثمائة ناقة !

فقال الحطيئة : كيف أهجو رجلا لاأرى فى بيتى أثاثا ولامالا إلا من عنده ! ثم قال :

كيف الهجاء ، وما تنفك صالحة ... من آل لام بظهر الغيب تأتينى

فقال لهم بشر بن أبى خازم : أنا أهجوه لكم ، فأخذ الإبل وهجاه[5] ! وتروى نفس القصة مع زيد الخيل[6] .

---

(١) انظر القصة فى الديوان ٢٩٤ — ٢٩٥ .

(٢) غ ٢ / ١٨٢ (٣) غ ٢ / ١٨٣ ، ١٨٤ .

(٤) غ ٢ / ١٨٦ (٥) خزانة الأدب للبغدادى ٢ / ٢٦٣ (٦) غ ١٦ / ٥٥

ولو كان الحطيئة بشعا إلى هذا الحد ، لما كان لديه هذه الغَيْرة على بناته ، بل كنت أوافق على وصفه بشدة البخل الذى يمكن أنه كان يدفعه إلى أن يرضى لنفسه بأن يكون ديُّوثا ، ولامانع لديه من الاستفادة من وراء بناته — بأية طريقة من الطرق — ولكنه بعكس ذلك ، خشى على بناته حينما نزل ببنى مقلَّد بن يربوع . فقالوا له : « ... فمرنا بما تُحبُّ أن نفعله ، وبما تحبُّ أن ننتهى عنه ، فقال : « لاتكثروا زيارتى فتملونى ، ولاتقطعوها فتوحشونى ، ولا تجعلوا فناء بيتى مجلسا لكم ، ولا تسمعوا بناتى غِناء شبانكم ، فإن الغناء رُقية الزنا[1] »!

ولما التقى بابن عباس فى مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يعرفه فى أول الأمر حتى عرفه عبد الرحمن بن سيْحان المحاربىّ حليف قريش ، فأجلّه وأعظمه وألطف فى مسألته وقال : قرّب الله دارَكَ يا أبا مليكة . (وبذلك خاطبه بكنيته احتراما له) . فقال ابن عباس : أجَرْوَلُ ؟

قال : جرول ! فإذا هو الحطيئة .

فقال ابن عباس : « للهِ أنت ! أى مِرْدَى قِذَاف ، وذائدٍ عن عشيرة ، ومُثْنٍ بعارفة تُؤْتاها أنت ياأبا مُليكة ! والله لو كنتَ عركتَ بجنبك بعض ما كرهتَ من أمر الزبرقان كان خيرا لك ، ولقد ظلمتَ مِن قومه مَنْ لم يظلمك ، وشتمتَ من لم يشتمك » .

قال : إنى والله بهم يا أبا العباس لعالم !

ثم أنشد أبياتا ثلاثة أثنى فيها على آل شمّاس ثم هجا الزبرقان . فقال ابن عباس : أقسمت عليك ألا تقول إلا خيراً .

قال : أفعل .

ففى هذا النص يعترف ابن عباس بما للحطيئة من فضل على عشيرته ، وأنه يثنى على مَنْ يحسن إليه ، ويعترف بالفضل ، ولاينكره ، ويعترف بما ارتكبه آل الزبرقان فى حقه بقوله : « بعض ما كرهت من أمر الزبرقان » ولنكمل النص : « وسأله ابن عباس عن أشعر

(١) غ ٢ / ١٧٩ .

الشعراء ، فذكر له الحطيئة إعجابه بزهير لقوله : ومن يجعل المعروف ... و بالنابغة لقوله : ولست بمستبق أخا ... ثم يستطرد فى التعليق فيقول :

ولـكنّ الضراعة أفسدته كما أفسدت جرْوَلاً — يعنى نفسه — والله يا ابن عم رسول الله لولا الطمعُ والجشَعُ لـكنت أشعر الماضين ! فنى هذا اعتراف صريح منه بأن الأخلاق العالية خير للفتى أن يتحلّى بها ، وأن المال لا يمكن أن يرفع الشخص بل يخفضه ، ويؤيد ذلك ماقاله من أبيات [1].

ومابخل الحطيئة إلا نتيجة لحياته القاسية التى عاشها ، ولفقدان حقه فى الميراث ، بل حقه فى أن يعرف مَنْ أبوه لـكى يتمكن من أن يرفع رأسه عاليا بين إخوته وقومه وعشيرته ، فإن العقدة النفسية التى تأصلت فى عقله الباطن وسيطرت عليه ، قد علمته أن المـال هو كل شىء فى الحياة ، ولذلك بدا فى كثير من الأحيان طماعًا جشعا ، على حد تعبير الأقدمين .

وأعتقد أن مما جعل الناس يكرهون الحطيئة ، كونه مجهول الأب ، فقد صرّح ابن الكلبى بقوله عنه : وكان من أولاد الزنا الذين شرفوا [2] .

إننا نعرف أن اللقيط أو ابن الزنا يعيش طول حياته محتقرا فى نظر الناس ، حتى إذا ارتفع أو أظهر نبوغا ، كره ذلك منه الناس ، وعدّوا ذلك شيئا غير لائق بمثله أن يصل إليه ، و بذلك يكون ذلك من الأسباب والعوامل التى تزيد من اضطهاد الناس له وملاحقتهم إياه بكرههم و إيذائهم ، ومحاولتهم الحط منه لهدمه ، بل و إفنائه من سجل الوجود . و إذا عرفنا المزاج العربى الحاد سريع الحسّاسية من جهة ، وأنفة العربى واعتزازه بآبائه وأجداده [3] ، من جهة أخرى أدركنا إلى أى حد يحتقر هذا المزاج من ينبذه المجتمع لجريرة ارتـكبها أب مجهول ، ثم ترك ثمرة جرمه تسعى وتدب بين الناس . لو تأملنا موقف العربى من الأعاجم ، وتعصبه ضـدهم تعصبا مقيتا لا يسمح للأعجمى بالزواج من العربيـة حتى إذا حدث ذلك ، أرغم الأعجمى

---

(١) ص ٣٩٣ من هذه الطبعة .
(٢) غ ٢ / ١٥٨ .
(٣) انظر مثلا لذلك الفرزدق وتيهه بآبائه وأجداده فى فخره المنيف بذلك .

(أوالعلج) على تطليقها[1] ، إذا عرفنا مايفعله العربى إزاء الأعجمى ، فما باله يفعل إزاء ابن الزنا ؟

إن الحطيئة كان يشعر بتلك العقدة ـ عقد الشعور بالنقص إلى حد أنه صرح قائلا : « إنما أنا حَسَبٌ موضوع[2] » وإذا حاولنا أن نحس إحساسانه ، وفهمنا ذلك الجانب الخطير من نفسيته استطعنا أن نفسّر بسهولة تجرؤه على هجاء من هجا مِنْ أقرب المقربين إليه : إخوته أمه . زوجه أولاده ، وأخيرا . . . نفسه ! الظن أنه كان كثيراماتنتابه حالات القلق النفسى والضيق فيثور ثورة الذى يريد أن يحطم كل شىء أمامه .

وبعد ، فنستطيع أن نشعر بذلك تمام الشعور إذا قرأنا سيرة شخصيتين إحداهما جاهلية وهى شخصية عنترة والأخرى جاهلية إسلامية وهى شخصية زياد بن أبيه ، وعرفنا إلى أى حَدٍّ نَــكِرَهُما الناس ، وإلى أى حد أشعروهما بالمهانة والاحتقار. ومما زاد فى التأثير فى شخصية الحطيئة أنه عاش إبّان ظهور الإسلام ، فى الوقت الذى كانت فيه نفوس المؤمنين تترعرع بنفحات الدين الجديد وتمتلىء نفوسهم امتلاءً بعقائده ، ولذلك كلما وجدوا خروجا بسيطا عليه ، أو هفوة صغيرة من جانب أحد المسلمين ، فإنهم يشمئزون كل الاشمئزاز منه من جهة ولا يكادون يرحمون مرتكبها من جهة أخرى ، ونستطيع أن نضرب مثلا بسيطا لذلك هو ضرب على بن أبى طالب للوليد بن عقبة بن معيط بعد أن كاد يتراخى ولىّ الأمر ـ كما يروون ـ عن تنفيذ العقاب ومحاولة الوليد ثَنْى علىّ عن التنفيذ بقوله : إنه من قريش! فما بالك بجريمة حدثت فعلا وهى جريمة الزنا التى لا يستطاع محوها لأنها قدحدثت وأثمرت تلك الثمرة : وهى الحطيئة[3] تلك الثمرة التى يشاء القدر الساخر أن يطلق عليها اسما هو أقرب الأسماء إلى « الخطيئة » . وكم من مرة حاول أحد الاسمين أن يزاحم الآخر فى ذهن كل من يلتقى بالحطيئة ، فلا يملك — على ما أتخيله وأعتقده — إلا أن يبتسم ابتسامة السخرية ، ولو فى ضميره ، وفى أعماق نفسه .

ولهذا الأصل الذى نشأ فى لهيبه ، ولهذه القذارة التى لحقته من جهة ولادته ونشأته ،

---

(١) انظر العقد الفريد ٢ / . (٢) غ ٢ / ١٧١ . (٣) غ ٢ / ١٧١

ولهذا الحرمان الذى مُنِيَ به وهو الحرمان من عطف أبيه وإضفائه عليه أسباب الاحترام والرضا عن نفسه ، والحرمان الذى مُنِيَ به من إخوته حينما أبَوْا أن يعترفوا به أخاً لهم من جهة وأن يعترفوا بحقه فى أن يرث كما ورثوا من جهة أخرى ، هذا الحرمان طبعه بطابع الحرص على تعويض ماينقصه ، والمبالغة فى هذا الحرص ، وإعمال شخصيته المفككة فى هذه المبالغة ، فكان نتاج ذلك كله طمعا وإلحافا فى السؤال وجشعا ومن ثَمَّ بخل، وهذه صفات طبيعية لاتجعلنا نثور على صاحبها ثورة عارمة ونمقته مقتا عنيفا قبل أن نغوص فى أعماق نفسه ونعرف أسباب هذه الصفات السابحة على المظهر الخارجى لنفسه : إنه بخل وجشع نتجا عن حياته كلها بما فيها من تلك العيوب التى ذكرت والتى صورت آنفا ! ولهذا كله ، بل ولأكثر من هذا ، لاعجب إذا روى لنا أبو الفرج قصتين تدلاَّن على بخله وعدم إكرامه الضيفان(١) بل وهجاء الأضياف : وهذا إن دلّ على شىء فإنما يدل على انتقام من الناس بهذا الفعل أكثر مما هو طبع أصيل فيه ! فإن شعوره بالنقص كان يجعله يُهِينُ نفسه فى سبيل اكتساب المال الذى يراه مادة الحياة ووُصْلَةً كل إنسان إلى السعادة والرفعة ، ولذلك حَرَص على اقتنائه فمن هذا كان حريصا وبخيلا بما كدّ وتعب فى جمعه وبما عز عليه أن يناله هينا لينا من إخوته ميراثا .

وأخيرا أستطيع أن أقول لمن ينظرون تلك النظرة المخطئة للحطيئة من غير ماتعمق فى شخصيته ، أقول لهم : لو عاش الحطيئة فى الدولة الأموية أو العباسية لتغيرت ــ كما أعتقد ــ نظرة الناس إليه .

خفة روحه :

وكان الحطيئة فكها ، مثله فى ذلك مَثَلُ من هم على شاكلته ، وأكثرهم ممن مُنُوا من الحياة بتشويه فى الشكل أو الخَلْق أو النفس ، فأصيبوا بعقدة تجعلهم يتصرفون بعض التصرفات التى تدل على محاولة الناس أن يضحكوا منهم ، وأن يحاولوا هم الضحك من الناس ، وأشباه ذلك كثير من الساخرين كالشيخ عبد العزيز البشرى ، وإمام العبد ، والجاحظ وبرناردشو

(١) غ ٢ / ٢٧٢ ، ١٧٣ .

وغيرهم كثير ، ولا نجد فى كتب الأدب إلا القليل فى هـذا الصدد ، فيحكى أبو الفرج تلك القصة :

مرّ ابن الحمامة بالحطيئة — وهو جالس بفناء بيته — فقال : السلام عليكم .

فقال : قلتَ مالا يُنْـكر !

قال : إنى خرجت من عند أهلى بغير زاد !

فقال : ماضَمِنتُ لأهلك قِراك !

قال : أفتأذن لى أن آتىَ ظل بيتك فأتفيأ به ؟

قال : دونك الجبلَ يفىء عليك !

قال : أنا ابن الحمامة !

قال : انصرف وكن ابن أى طائر شئت[1] !

وروى أبو الفرج هذه القصة أيضا :

أتى رجل الحطيئة وهو فى غنم له ، فقال له : ياصاحب الغنم !

فرفع الحطيئة العصا ، وقال : إنها عَجْراء من سَلَم !

فقال الرجل : إنى ضيف !

فقال : للضيفان أعددتها !

فانصرف عنه[2] .

وإذا أضفنا إلى ذلك ما جاء فى وصيته المشهورة اللطيفة[3] ، وما يذكر عنه فى كتب النوادر[4] ، عرفنا أن الحطيئة كان يتمتع بخفة الروح ، تظهر فى كثير من شعره ، وفى بيتيه اللذين هجا بهما رجلا من أضيافه[5] .

• • •

---

(١) غ ٢ / ١٧١ وتشبه هذه القصة فى ردودها القصيرة تلك الأسطورة التى تروى على لسان الأرنب والضب حينما التقطت الأرنب تمرة فاختلسها الثعلب ، فانطلقا إلى الضب . . . الخ .

(٢) غ ٢ / ١٧١ (٣) انظر الديوان ص ٣٥٥ .

(٤) كتاب [جمع الجواهر فى الملح والنوادر] للثعالبى طبعة التجارية سنة ١٩٣٢ ص ٢٢٧ .

(٥) الديوان ص ٣٥٣ وانظر القصة التالية .

خوف الناس والقبائل منه :

ولشدة وقع هجائه ، كان يخشاه الناس ، فما يدل على ذلك أنه : « لما نزل بالمدينة فى سنة مجدبة ، مَشَى أشراف أهل المدينة بعضهم إلى بعض ، فقالوا : قد قَدِمَ علينا هذا الرجل وهو شاعر ، والشاعر يظن فيحقق ، وهو يأتى الرجل من أشرافكم يسأله ، فإن أعطاه جَهْدَ نفسِه بَهَرها ، وإن حرمه هجاه ، فأجمع رأيهم على أن يجعلوا له شيئاً معدا يجمعونه بينهم له ، فكان أهلُ البيت من قريش والأنصار يجمعون له العشرة والعشرين والثلاثين ديناراً ، حتى جمعوا أربعمائة دينار ، وظنوا أنهم قد أغنَوْه ، فإذا هو يوم الجمعة قد استقبلَ الإمام ماثلا ينادى : من يحملنى على بغلين وقاه الله كبَّة جهنم[1] !

وكذلك سيقت قصة تشبه السابقة فى خوف بنى مُقلَّد بن يربوع منه ، وإكرامهم إياه حتى لايتناولهم فى شعره[2] . وقد خاف منه حسان أيضا ، فيروى أبو الفرج هذه القصة :

وقف أعرابى على حسّان بن ثابت وهو يُنشد ، فقال له حسان : كيف تسمع يا أعرابى ؟

قال : ما أسمع بأسا !

قال حسان : أما تسمعون إلى الأعرابىّ ! ما كنيتك أيها الرجل ؟

قال : أبو مُلَيكة .

قال : ما كنتَ قَطُّ أهونَ علىّ منك حين اكتنيت بامرأة . فما اسمك ؟

قال : الحطيئة .

فأطرق حسان ؛ ثم قال له : امضِ بسلام[3] .

فَنُّ الحطيئة :

كان الحطيئة راوية لزهير وابنه ، وكان هُدْبة بن خَشْرم راوية للحطيئة[4] .

---

(١) غ ٢ / ١٦٤ (٢) غ ٢ / ١٧٨ .

(٣) غ ٢ / ١٧٠ .

(٤) طبقات الشعراء لابن سلام ص ٢٣ ، غ ٢ / ١٦٥ ، ٧ / ٧٣ ، خزانة الأدب للبغدادى ١ / ٤٠٩

وقد سأل كعبَ بن زهير أن يذكره فى شعره قائلا : قد علمتَ روايتى لـكم أهلَ البيت وانقطاعى إليكم ، وقد ذهب الفحول غيرى وغيرَك ، فلو قلتَ شعرا تذكر فيه نفسك ، وتضعنى موضعا بعدك ، فقال كعب :

فمَنْ للقوافى شانها من يحوكها إذا ما ثوَى كعب وفوّزَ جرْوَل
كفيتك لاتلقى من الناس واحدا تنخّل منها مثْلَ ما تتنخّلُ[1]

ومن الغريب أن القدماء اعتبروا ذلك الطلب الذى طلبه الحطيئة من كعب دناءة ، فقال أبو الفرج : « فبلغ من دناءة نفسه أنه أتى كعب بن زهير . . قائلا له فلو قلت شعرا تذكر فيه نفسك وتضعنى موضعا بعدك »[2] .

ويمكن أن نعتبر الحطيئة من مدرسة زهير وأوس بن حَجَر التى تُعْـنَى بتهذيب الشعر وتنقيحه والتعمل فيه زمنا حتى يخرج منقحا ، أو كما قيل : « الحوْلىّ المحكك » ولقلة مابشعره من أخطاء قيل عنه : وماتشاء أن تطعن فى شعر شاعر إلا وجدتَ فيه مطعنا ، وما أقل ماتجد ذلك فى شعره[2] » .

وقد ذكر أحد النقاد أبياتا قافية للحطيئة ينتهى بعدها مُنشدها بأنه ليس بعد زهير إلا الحطيئة[3] ، وقد يكون الحطيئة قد تأثر بزهير ، ولـكن هذا التأثير لايمكن أن يصور بأنهما مشتركان فى إيراد الصور الحسية المادية فحسب ، كما قال الدكتور طه حسين ، فليس إيراد الشاعر للصور المادية الحسية تعبيرا عن ذات نفسه يعتبر مذهبا خاصا به منسوبا إليه ، بل إنه شىء شائع عند أغلب الشعراء .

ومهما يكن من أمر ، فليس هذا موضع مناقشة الدكتور طه حسين أوالدكتور شوقى ضيف فى دراسة الشعر العربى على أساس أن به مذاهب الصنعة والتصنع والتصنيع ، فذلك شىء يجافى روح الشعر كل المجافاة .

وقد صدق فكتور هيجو والشاعر الإنجليزى كيتس فى نظرتهم إلى الشعر أنه فيض

---

(١) غ ٢ / ١٦٥ (٢) غ ٢ /١٦٥ .
(٣) الديوان ص ٣٩٤ ، غ ٢ / ١٦٥ .

لاصناعة[1] . ولذلك لاحاجة بنا إلى مناقشة من حاولوا دراسة فن الحطيئة على هذا الأساس ، كما فعل البستانى صاحب الروائع حين كلامه على الحطيئة هذا الكلام السطحى الذى لاغَناء فيه قائلا : أما تأثير زهير فيه فواضح ، خصوصا فى القصائد المدحية ومقاطع الوصف ، وهو يتجلى بمظهرين : الأول من حيث الصناعة الشعرية وما إليهـا من السبك والتنسيق . والثانى من حيث التعابير والأوصاف ، واستغلالها على طريقة خاصة ورثها زهير عن أوس ، وأورثها ابنه كعبا ، وتلميذه الحطيئة[2] ، وما هذه الطريقة الخاصـة التى أورثها زهير تلاميذه ؟ إنه لايشرحها إلا بعبارات مبهمة لاطائل وراءها . ومهما يكن من أمر ، فنرجوأن تتاح لنا الفرصة فنوفق إلى دراسة رأى الدكتور طه حسين ومن أتى بعده ، لـكى نبين ونثبت أن تقسيم الشعر العربى إلى مدارس تقليدا للشعر الغربى ، ومحاولة النظر إليه على أنه صناعة شيء بعيد عن روح الفن ولاطائل وراءه .

مكانته ورأى الأقدمين فيه :

قال أبوالفرج : « وهو من فحول الشعراء ومتقدميهم وفصحائهم ، متصرف فى جميع فنون الشعر من المديح والهجاء والفخر والنسيب ، مجيد فى ذلك أجمع »[3] .

وقال أبوعبيدة — فيما يختص بالأسلوب — كان الحطيئة متين الشعر ، شَرودَ القافية[4]

وقال أحد النقاد : « مامن أحد إلا لو شاء أن أجد فى شعره مطعنا لوجدتُه إلا الحطيئة[5] » وعَدَّه ابن سلام فى الطبقة الثانية من الجاهليين .

وقيل للحطيئة : مابال قصارك أكثر من طوالك ؟

قال : لأنها فى الآذان أولج ، وفى أفواه الناس أعلق[6] .

وقد عبَّر ابن عباس عن شعره الهجائى ، وقوة أسلوبه به أقوى تعبير بقوله له : أىُّ مِرْدَى قِذافٍ ، وذائد عن عشيرة ، ومُثْنٍ بعارفةٍ تؤتاها أنت ياأبا مُليكة[7] ؟ وأُعجب به

---

(١) قصة الأدب فى العالم : جمع وتعريب أحمد أمين وزكي نجيب محمود ٣ / ٨٧ .
(٢) الروائع ٢٩ (كا) (٣) غ ٢ / ١٥٧ (٤) غ ٢ / ١٦٥ .
(٥) غ ٢ / ١٦٩ . (٦) غ ١٩ / ٣٣ (٧) ٢ / ١٩٢

كثير عزّة ، إذ جاءه رجل فسأله : أبا صخر، مَنْ أشعر الناس ؟ قال : الذى يقول :

وآثرت إدلاجى على ليل حُرّةٍ　　هضيم الحشا حُسّانة المتجرّد

تفرّق بالمِدْرَى أثيثا نباتُهُ　　على واضح الذفرى أسيلِ المقلدِ

قال: قلت هذا الحطيئة . قال : هو ذاك[1] .

وقد كانت أبياته الرائية القوية التى استرحم بها عمر سببا فى العفو عنه لشدة تأثيرها ووقعها على النفس .

وقد نقده المرزبانى فى بعض أبيات قالها[2] :

الحطيئة والشعراء :

أبدى الحطيئة رأيه فى بعض الشعراء ، فحينما وقف على حسان وهو ينشد ، سأله رأيه فى شعره قائلا : كيف تسمع ياأعرابى ؟ قال : ماأسمع بأسا[3] .

وهذا إن دلّ على شئ فهو يدل على أنه لم يعجب به كل الإعجاب ، ولكنه فى وصيته التى رُويت عنه يقول لأهله : أبلغوا الأنصار أن صاحبهم أشعر العرب حيث يقول :

يُغشَوْنَ حتى ماتهرُّ كلابهم　　لا يَسألون عن السواد المقبل

وأعجب ببعض الشعراء لأبيات قالوها كالشمّاخ، وضابئ، وامرىء القيس، وزهير، والنابغة وأبى دواد الإيادى وعبيد بن الأبرص[4] ، وهذه الأحكام النقدية أحكام جزئية لاتدل على قيمة أدبية أوذوق الشاعر فى اختياره أومَيْله إلى أسلوب خاص من الأساليب . وكان فى كل مرة يفضل عدة شعراء ، ينتهى بالكلام على نفسه كما حدث حينما التقى بسعيد بن العاص ، وعدّدله بعض الشعراء الذين يعتبر كل واحد منهم أشعر الشعراء ، ثم سُئل ، ثم مَنْ ؟ قال : والله لَحَسْبُكَ بى عند رغبة أورهبة إذا رفعتُ إحدى رجلىَّ على الأخرى ، ثم عويت فى إثر القوافى عواء الفصيل الصادى[5] .

---

(١) غ ٢ / ٢٠٠

(٢) أنظر الموشح للمرزبانى ٨٥ ، ٨٩، ٩٠ ، ٩١ وانظر الديوان :

(٣) غ ٢ / ١٧٠　　(٤) انظر وصيته ص٣٥٥ ـ ٣٥٨ والتقاءه بسعيد بن العاص من الديوان.

(٥) غ ٢ / ١٦٧

وقد أُعجب بالفرزدق فى مجلس سعيد بن العاص ، فقال له : قل ماشئت فقد أدركت من مضى ، ولا يدركك من بقى ، ثم قال لسعيد : هذا والله الشعر ، لا ما كنا نعلل به أنفسنا منذ اليوم .

وزاد على ذلك ابن سلام : أنه لما قال هذا الكلام ، قال له كعب بن جعيل — وكان حاضرا — فضِّله عَلَى نفسك ولا تفضِّلْهُ على غيرك.

فقال الحطيئة : والله أفضله على نفسى وغيرى ، ثم قال له : ياغلام ، أأنجدت أمك ؟

قال : بل أنجد أبى !

وبهذا استطاع الفرزدق أن يغلب الحطيئة فى الجواب ، ومع هذا فقد ادّعى جرير أن كلمة الحطيئة الأخيرة تعد إهانة للفرزدق ، فقال :

سأذكر ماقال الحطيئة جارُكم   وأُخذِثُ وَسْماً فوق وسم المُخبَّل (١)

وقال الفرزدق فى إحدى قصائده التى يفخر به :

وَهَبَ القصائد لى النوابغُ إذْ مَضَوْا   وأبو يزيدَ وذوالقروح ِوَجَرْوَلُ(٢)

فهجاه الطرماح بسبب هذا البيت قائلا :

فاسأل قفيرة بالمرّوتِ هل شهدت   عُشبَ الحطيئة بين الـكِسْر والنَّضَدِ(٣)

ولما هجا النجاشىّ بنى العجلان ، أرسل عمر إلى الحطيئة وحسان لتحكيمهما ، وأخذ رأيهما فى هذا الهجاء(٤).

***

(١) النقائض بين جرير والفرزدق ٧٧٠

(٢) الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٦٨

(٣) المرجع السابق ص ٥٦٩   (٤) المرجع السابق ٢٩٠ — ٢٩١ .

مراجع لدراسة فن الحطيئة

وممّن درس الحطيئة :

١ ـ جورجي زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية .

٢ ـ محمد حسن نائل المرصفي : « من دراسة الشعراء » الذى أكمله إبراهيم الإبياري ، وعبد الحفيظ شلبي (طبعة مصطفى محمد سنة ١٩٤٤) ص ٢٥١ ـ ٢٨٥ .

٣ ، ٤ ـ طه حسين : فى الأدب الجاهلى (طبعة القاهرة سنة ١٩٣٣) ص ٣١٠ ـ ٣١٦ حديث الأربعاء (طبعة مصطفى البابى الحلبى سنة ١٩٣٧) ١/١٥٣ ـ ١٧٠ .

٥ ـ إفرام البستاني : مجموعة الروائع : العدد الخاص بالحطيئة (طبعة بيروت سنة ١٩٣١، ١٩٤٢)

٦ ـ م . محمد حسين : الهجاء والهجاءون (مكتبة الآداب ١٩٤٧) ١/١٠٢ ـ ١١٣ .

٧ ـ السباعى السباعى بيومى : من تاريخ الأدب العربى (مكتبة الأنجلو ١٩٥٢) ٢/٣٣٦ ، ٣٨٠ .